محمد قنانش



طبعة خاصة
وزارة المجاهدين

ذكرياتي مع مشاهير الكفاح

دار القصبة للنشر

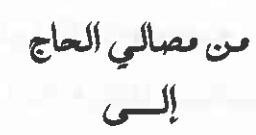
الأكاديمية الجزائرية للوثائق و المصادر التاريخية.

ذكرياتي مع مشاهير الكفاح

محمد قنانش



ذكرياتي مع مشاهير الكفاح



من مصالي الحاج

إلـــى

مفدي زكريا

عبد الحميد بن باديس

الأمير خالد

محمد العيد آل خليفة

أحمد توفيق المدني

آكلي بانون

جمال الدين سفينجة

هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين
بمناسبة الذكرى الخمسين لاندلاع
الثورة التحرير ية المباركة

دار القصبة للنشر
فيلا 6، حي سعيد حمدين – حيدرة – 16012 الجزائر

«لا شيء يستـ

«إنه من الـ
الذين يمارسو
إلى أن يكو
ممارسة السـ

تدمك : 9961 – 64 – 513 – 8
الإيداع القانوني : 2004 – 3068

«لا شيء يستحق أن يكتب خيرا من المذكرات»

أندري مالرو

«إنه من المفيد للتاريخ أن يكتبه أولئك الرجال الذين يمارسون السياسة، أو أولئك الذين يطمحون إلى أن يكونوا مؤلفين فيجعلون التدرب على ممارسة السياسة شيئا أساسيا لكتابة التاريخ».

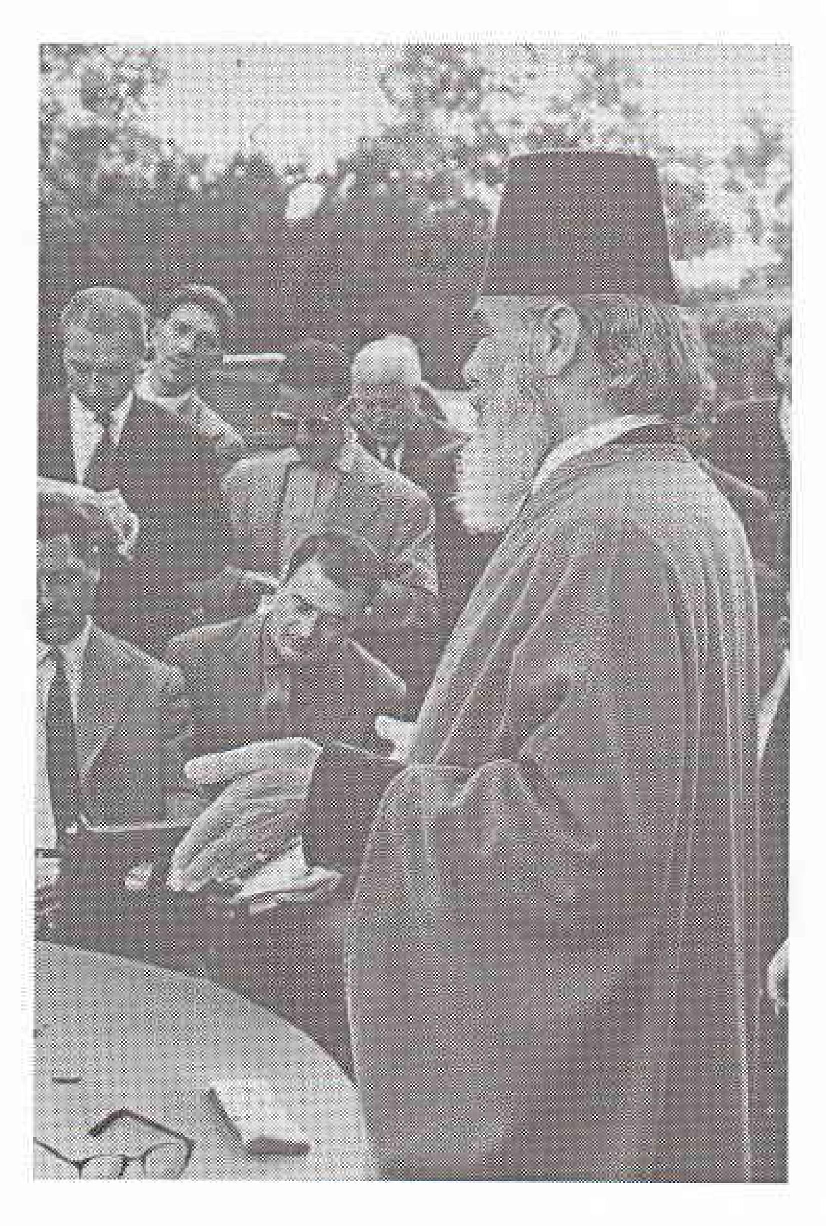
بوليب، *Polybius*

ولد في الفاتح من القرن الثاني ق.م

الكتاب الأول

ذكرياتي مع مصالي الحاج

مع مصالي الحاج
ذكريات !! وأحداث !!
في رفقته وأحاديثه



مصالي الحاج يدير ندوة صحفية

1

ذكريات مع مصالي الحاج

من هو مصالي الحاج؟ كيف عرفته؟ اتصالاتي به، أحاديثه معي.
هو حجي ولد أحمد بن حجي بن سي بوزيان بمصلي، هكذا هو مسجل في الشجرة العائلية لبلدية تلمسان.
ولد في يوم 17 ماي 1898 بدار قادري بالدرب الفوقي، نهج باب الجياد الآن.
كانت تجمع عائلتنا بعائلة مصالي وبالأخص عائلة أخته الكبرى التي كان ينزل عندها ويقيم، حومة باب الجياد وكانت تضم حي «الرحيبة» وحي «سيدي الوزان»، وعرصة «ديدو» وحي «مصطفى». هذه الأحياء كانت مداخلها مختلفة ولكن سطوحها متقاربة ومتشابكة.
أما والده فكان يسكن بضريح الشيخ عبد القادر الجيلالي الذي كان قَيِّماً عليه من سنة 1922، بعد ما كان فلاحا صغيرا في قرية «الصفصيف». توفي الوالد في مارس 1938 عن عمر يناهز المائة سنة. وقد كان يردد على مسامعنا حينما نسأله عن مولده بأنه ولد وقت دخول الفرنسيين لتلمسان.
وكانت الزاوية الدرقاوية، المنتسبة للشيخ الحاج بن يلس، تجمعنا أيضا وكانت بنفس الحومة، ومقدمها هو صهره الحاج عبد القادر

ممشاوي، كما كانت مهنة أخيه الأكبر وصهره ووالدي وعمي مهنة واحدة، وهي صنع براميل الماء للبادية في الصيف، وأعواد الحرث في الخريف، وكل ما يهم الفلاحة في باقي السنة. وكان أخوه الغوثي شريكا لعمي الغوثي. وكانا متخصصين في صنع «القبيبات» لشرب الماء في المدينة، وتصنع من لوح العرعار صاحب الرائحة الطيبة.

وقد خلف أخوه الغوثي والده على ضريح الشيخ عبد القادر الجيلالي وعاش إلى سنوات الثمانين.

أول معرفتي به

لقد رأيته للمرة الأولى عند رجوعه من الخدمة العسكرية التي قضاها في فرنسا ويوم زيارة الأمير خالد لتلمسان سنة 1922. وكان عمري لا يتجاوز السابعة وذلك عندما خرجنا من الكتّاب على العاشرة والنصف، وسمعنا من مدرسة الشبيبة التي كانت في أول عهدها، النشيد الوطني الأول الذي عرفته تلمسان بمناسبة زيارة الأمير خالد للمدرسة، ويبدأ هكذا : هيا بنا أهل الوطن، نحي الفرائض والسنن وقد أصبح ينشد في كل المظاهرات إلى ما بعد سنة 1945.

وحين خرج الأمير من المدرسة، التي كانت بساحة «الخادم» وقد أصبحت الآن ساحة الشيخ الإبراهيمي، ذهب مع رفاقه إلى مقهى «القلاسيي» وكانت خاصة بالبرجوازية الفرنسية. ووقفنا نحن الأطفال بعيدا عنها ننظر إلى ما يجري داخلها وخارجها، وبجانبنا رأينا شابا متحمسا ينظر إلى ما يجري أمامه وهو في حالة هيجان كأنه غير راض عما يرى. وهناك عرفنا أنه حجي مصلي كما كان يدعى في المدينة، ثم ذهب الجميع إلى قاعة البلدية التي لم تكن بعيدة أين ألقى الأمير خطابا لم نحضره ولم نستمع إليه، وقد رجعنا إلى ديارنا لنسد رمقنا.

ثم رأيته للمرة الثانية حينما زار تلمسان بمفرده في صيف 1924 ببذلته الأوروبية، وطربوشه التركي الطويل، ومشيته المستقيمة، وخيزرانته الأنيقة وكانت الموضة آنذاك والأناقة تستدعيها.

كان يمر بطريق «الكتاب» الواقع بحي مصطفى، وكان يقيم عند أخته في عرصة «ديدو» فكنا نقف مبهوتين، نتملى من رؤيته، ونستشف من خلال سلوكاته مستقبلنا.

وكنا نتمنى أن نكون على شاكلته، ثم زار عائلته في صيف 1925 مع رفيقة حياته، ولأول مرة نرى رجلا وامرأة في منتهى الأناقة يسيران جنبا لجنب، يتحدثان بلطافة، ويبتسمان في تؤدة وحيوية. والناس يقفون ليروا هذا العملاق الذي يمشي منتصب القامة، مستقبلا الحياة بتفاؤل ونشاط.

وقد اعتاد الناس عندنا أن يروا شبابهم منحني القامة، متعبا من طفولته، كأنما يحمل أكواما من هموم التاريخ ومشاكل الحياة، ولا يبتسم لأن البسمة تقلل من شأن الرجولة، ولأن البسمة شيء غريب في محيطنا الذي لم يحصل على المواطنة.

***

كان المجتمع الجزائري، بعد الحرب العالمية الأولى يعيش في ضيق شديد اقتصاديا ونفسيا، وقد أسكت صوت الأمير خالد الذي كان ينتظر منه الكثير. ونفي إلى سوريا مأسوفا عليه، ولم يبق إلا بصيص أمل كان يأتي من الريف المغربي، ومن زعيمه عبد الكريم الخطابي قبل أن تتكالب عليه إسبانيا وفرنسا لتحطيمه ونفيه.

وبقي الناس في أعماقهم ينتظرون - كطبيعتهم في الكوارث - من سيرفع رايتهم عاليا ويعيد إليهم توازنهم وآمالهم المنشودة. وقد سمعوا

بعد سنة بأن أبناءهم في باريس قد كونوا جمعية للدفاع عن مصالحهم، واسمها «نجم شمال إفريقيا» وتصدر جريدة «الأمة» بباريس في الثلاثين، ويصل العدد الثاني إلى تلمسان، ويدخل جار والدي العربي بوعياد إلى دكاننا، ويختلي بوالدي ليريه جريدة جديدة صغيرة الحجم، ويحدثه عنها وعن صاحبها الذي كان رفيقهم في الزاوية وفي التعليم.

ولقد استرقت النظر إليها خلسة ورأيت الهلال والكتابة بالعربية، وتمكنت من قراءة ما تحت العنوان وهو «جريدة وطنية للدفاع عن حقوق مسلمي إفريقيا الشمالية» وبقيت صورة الجريدة في ذهني حية، إلى أن بدأنا نتصل بالجريدة بطريقة سرية تارة، أو بالشراء، وترتفع قيمتها خمس مرات أو أكثر، حينما تصل عن طريق الباعة، الذين كانوا يجازفون ببيعها وفيه من الخطر ما فيه، وأخرى نحصل عليها بلا شيء ولكن بإرجاعها إلى صاحبها، وتصل من كثرة تداولها بين الأيدي إلى أن تتمزق إربا إربا، وتصبح كشيء مقدس يجب الحفاظ عليه، والتماس البركة منه.

لم أكن أحسن الفرنسية، لأنني لم أدخل المدرسة الفرنسية، وذلك لأن والدي كان يرى تعليمها كفرا، ولكنني كنت أقضي الليل كله في تفهم بعض جملها، وأسجل في ورقة بعض الجمل لأطلب تفسيرها من رفاقي. وبواسطة جريدة «الأمة» وتفهمها تحصلت على معلومات لا بأس بها في الفرنسية وفي السياسة وفي الحياة العامة.

ولقد رأينا مرة صورته – وصورة رفيقيه – في أعداد سنة 1934 بمناسبة محاكمته، واطلعنا على تصريحاتهم الشجاعة أمام المحاكم، وكم كانت نخوتنا واعتزازنا برجال لا يخافون الشرطة ولا المحاكم، وكل ما كنا نتمناه أن نحظى يوما بالتعرف عليه – بالخصوص – وبالحديث معه، والتملي من رؤيته، وهذا ما تحقق

سنة 1936 حينما رجع إلى الجزائر، بعد غربة دامت أكثر من عقد من السنين. وذلك بعد نجاح الجبهة الشعبية في الانتخابات التشريعية بفرنسا، وتقرير العفو العام عن السياسيين، ومن ضمنهم مصالي الحاج، وألقى خطابه التاريخي يوم 2 أوت بالملعب البلدي بالعاصمة، وقد كان أول تصريح بالاستقلال فوق الأرض الجزائرية، كحل طبيعي للقضية الجزائرية، عوض الاندماج كحل خيالي.

وفي يوم 15 أوت كان على موعد مع زيارة مسقط رأسه، وقد أخذنا القطار معه من قرية «أولاد ميمون» على بعد عشرين كيلومترا من تلمسان، وكنا ثلاثة : الأخ بومدين معروف، محمد بوحجر، والمتحدث. وقد صعدنا بدءا من الدرجة الأولى، ولم يكن فيها غير الموظفين السامين والكولون، وانتقلنا إلى الدرجة الثانية فكانت تضم الطبقة المتوسطة، من تجار وموظفين، ولم يبق إلا الدرجة الثالثة، وكانت تعج بالمسافرين، وكلهم جزائريون وبعد تفتيش دقيق، وسط أكوام من البشر، عرفناه بقامته الطويلة والمستقيمة، وبزوجته الأنيقة، وولده علي الذي لم يكن يتجاوز الخامسة من عمره، وكان الأخ معروف هو الذي وجده الأول ونادانا لتحيته.

وعند وصول القطار إلى محطة تلمسان، كان في استقباله جماعة من الشباب قدموا له كأسا من الحليب، وحبات من التمر، وقطعة من خبز الشعير، وألقى طفل صغير كلمة ترحيب، بعدها خرج الجميع خارج المحطة، أين استقبله عدد آخر من الشبان كانوا في انتظاره مع عائلته وألقى واحد منهم كلمة رحب فيها بالزعيم في موطنه، وبعدما سلم مصالي على أفراد عائلته، طلب الإذن بالانصراف معهم، ليأخذ قسطا من الراحة من تعب السفر الذي كان طويلا ومتعبا.

وفي المساء من نفس اليوم، أقيم حفل استقبال على شرف رئيس نجم الشمال الإفريقي، بمنزل أمام البستان العمومي، حضره شبان الحركة الوطنية، وممثلون عن الأحزاب السياسية المنتمون إلى الجبهة الشعبية.

وكان من نصيبي أن أفتتح الجلسة بكلمة ترحيب بالضيف والمدعوين، ألقى بعدها الأخ بومدين معروف، ككاتب عام لفرع تلمسان للنجم. كلمة بالفرنسية ضمنها التعريف بالحركة الوطنية وآفاقها. وأعقبه الأخ «الغوتي بن شك» حول الحياة الاقتصادية وبعده تكلم الأخ بومدين الشافعي ممثلا للطلبة، وتلاه ممثل الجبهة الشعبية وكان اشتراكيا، ثم ممثل المؤتمر الإسلامي الجزائري، وكان الرفيق عبد الرحمن بوشامة، وأخيرا قام الرئيس مصالي الحاج، وألقى خطابا مطولا حلل فيه السياسة الدولية والمنعطف التاريخي الذي تمثله هذه الفترة، وبين وضعية الجزائر في هذه الإستراتيجية، وموقف النجم من هذه القضايا، وحذر من الاتكال على المطالب المستعجلة من غير نظام ولا كفاح، وحث الشبيبة على العمل المتواصل.

وانفض الاجتماع على السابعة مساء وصحبت مصالي الحاج وزوجته وولده في طريقهم إلى «باب الجياد» حيث تقيم عائلته وتحدثنا في الطريق عن تلمسان وعن عوائدها وتقاليدها وعن صغره فيها وبعض ذكرياته ثم انتقل إلى الحديث عن الجبهة الشعبية والحزب الشيوعي فقال لي بالخصوص : «إن الحزب الشيوعي قد أصبح ستالينيا، ولم يبق من الشيوعية إلا الاسم، «لينين» فمن واجب المناضلين أن يدرسوه وينتفعوا بتجاربه» وافترقنا على أن نذهب غدا إلى السوق لشراء ألبسة وطنية كان يتوق إليها.

2

الجزائر هي أقرب الدول العربية إلى الثورة

وحينما زرته في اليوم التالي وجدته يملي على زوجته مقالا لجريدة «الأمة» الذي هو مديرها السياسي، وكان عنوان المقال : «على هامش المؤتمر الإسلامي الجزائري»، وأوله هكذا : أيها الشعب الجزائري، إذا أردت أن تحيا وتفوز : نظم نفسك، وقد بدأه هكذا : «لو كنت معلما حريصا، وكان تلميذي الشعب، لطلبت منه أن يصرف فعل نظم نفسك، في جميع الحالات وبمختلف النبرات».

وبعد إتمام المقال أعادت زوجته عليه تغيير بعض التعابير، ففسر لها قصده منها، واقتنعت بتفسيره وجعلت المقال في غلاف، وكتبت عنوان الجريدة، وطلبت مني أن أجعله في صندوق البريد في طريقي. وخرجنا نتجول في طريقنا إلى السوق العربية، لاقتناء بعض الملابس الوطنية التي كان يتوق إليها، وكنا نمر ببعض الدكاكين الصغيرة وبعض التجار والحرفيين الذين كان يعرفهم فنراهم يحاولون الاختفاء عن مقابلته أو رد تحيته، لأن الخوف من الحكومة كان مستوليا على القلوب بشكل فضيح.

في طريقنا إلى محل الاجتماع الذي كان مقررا في ذلك المساء، التقينا في الطريق أحد معارف مصالي فسلم عليه ثم سأله كنوع

من التعجيز هل تطالب بالاستقلال لنرجع إلى ما كنا فيه من تأخر وتخلف وتناحر. فأجابه بلباقته المعهودة : هناك ضمان حضاري وهو وجود الأوروبيين معنا على أرض الجزائر، وهذ يدعونا إلى السير إلى الأمام معهم ويجنبنا رجوع البدو إلى المدن للقضاء على المكتسبات الحضارية. وقد أقنعه نوعا ما ثم قال ماذا عن اللغة الفرنسية أجابه على الفور: «إن اللغة الفرنسية مكسب حضاري لا يمكن الاستغناء عنه وهو باب للدخول إلى العصر».

وفي هذا المساء عقد أول اجتماع لإدارة فرع تلمسان للنجم تحت إشراف رئيسه. كان حديثه بسيطا وممتعا وعمليا، أضفى على الاجتماع نوعا من النشاط والديناميكية، لم تكن مألوفة لدينا.

وقد بدأ حديثه هكذا: «هناك أشياء عملية يجب أن تكونوا على علم بها، لأن حركتنا حركة نضال وكفاح مستمر، وهذا النوع من الحرية الذي نعيشه الآن، هو هدنة مؤقتة من طرف الاستعمار، فلا تغتروا بما ترونه الآن من هذا التفتح وهذه الحرية، وها هي بعض التعليمات الأولية التي يمكن الاستغناء عنها.

أولا: مع الشرطة لأنها ستكون دائما بجانبكم فإذا استدعيتم من طرفها باللسان فقط فلا تستجيبوا، بل يجب أن يكون الاستدعاء كتابيا ورسميا، وأمام رئيس الشرطة عليك بالإجابة على الأسئلة فقط باقتضاب، فإذا رأيت أنه يستدرجك إلى الحديث عن أشياء أخرى تقول له هل أنا متهم؟ فإذا أجابك بلا فلم يبق لك إلا أن تطلب الخروج وتتوقف عن الإجابة. أما إذا قال لك بأنك متهم فلا تجيب إلا أمام قاضي التحقيق وبحضور محاميك. وتطلب دائما مترجما لأن الواجب يقضي عليك بأن تتكلم لغتك حتى ولو كنت تحسن اللغة الفرنسية ثم لأن وقت

الترجمة يسمح لك بالتفكير في الإجابة، ولا تكن ثرثارا، بل أجب بكلمة أو كلمتين. وحين تجلس أمام قاضي التحقيق حاول أن تجابهه لئلا يؤثر عليك... وقبل أن تمضي التقرير الذي يقدمه لك قاضي التحقيق يجب أن تقرأه مليا وترفض الإمضاء إن كانت هناك تعابير لم تعجبك أو لم تفهمها. وقبل التفتيش في المنازل أو في الكتاب أطلب دائما صك التفتيش».

ثانيا: حدثنا عن اتصالاتنا بالغير وأعطى لها أهمية كبيرة، فقال : حينما تقابلون إنسانا سواء كان صديقا أو خصما أو عدوا فاتركوه يتحدث لتتعرفوا على نواياه وما يرمي إليه وحاولوا أن تكونوا فكرة عنه لأن النقطة الأولى للمناضل، هي أن يكون له حدس يصنف الأشخاص الذين يقابلهم ويتحدث معهم. ويجعل كل واحد في مقامه.

ثالثا: هو أن يعرف المناضل كيف يطالع الصحافة ويقيّم الأخبار وأن يقرأ ما هو مكتوب بإمعان، ويدرك ما لم يكتب بين السطور، وكل تكذيب لخبر هو إثبات له وتحقيق.

رابعا: الاتصاف بروح المبادرة، فحينما يكون المناضل في مأزق، يجب عليه أن يفكر كيف يخرج من مأزقه بوسائله الخاصة. ثم تطرق إلى موضوع الثورة التي كان الناس يتخوفون منها. فتحدث عنها كشيء طبيعي لا يحتاج إلى تفسير أو مناقشة، ويرى بأنها ضرورية لتغيير الأوضاع السيئة التي نعيش فيها من استعمار وتخلف. والثورة كما يراها يجب أن تكون شمولية : سياسية وثقافية واجتماعية وغيرها، ولا يمكن أن تتحرر من الاستعمار ونرجع إلى ما كنا عليه من تخلف وتأخر. وواجبنا يقضي علينا بأن نلتحق بالقافلة الحضارية التي بعدت عنا وذلك بالثورة على أنفسنا وعلى وضعيتنا. والجزائر هي

أقرب الدول العربية إلى الثورة، لأن الاستعمار لم يترك لها هياكل قديمة أو أسرة مالكة أو تقاليد تقف في طريقها، بل الثورة بالنسبة لها أمر طبيعي وممكن ولا يحتاج إلى عناء كبير. وكان يستدل في أحاديثه عن الثورة بدولة الموحدين وزعيمها ابن تومرت، وما قام به من تغيير في جميع المجالات، وقد أسس نوعا من الايديولوجية خاصة بالمغرب والأندلس، وقد طلب منا أن ندرس هذه الفترة من تاريخنا بكل جدية.

لا خيار لنا إلا الاستقلال

وكان يظهر من خلال أحاديثه الجياشة حينما يجد الجو الملائم، ويجد الشباب الذي يستمع له ويتأثر بنبراته العاطفية الصادقة، أنه كان يحلم بتكوين شباب جزائري جديد يقوم بتكوين مجتمع متحضر يكون مثالا للشعوب العربية وللأمة الإسلامية على السواء. وكان يؤمن إيمانا راسخا بأن الشاب الجزائري يمكنه أن يأتي بالمعجزات، إذا وجد من يساعده على تحمل المسؤوليات وعلى تمرينه على المبادرات الفردية لتخريجه من تقوقعه داخل تقاليد وعادات لا تمت إلى الحياة بصلة. والوعي الوطني في إطار تربية سياسية تفتح له الأبواب على مصراعيها للتفكير والمبادرة والتخطيط والعمل. لقد كانت له تجليات صوفية استعملها في التحليلات السياسية وعلى منظورها يكون له رؤية خاصة للمستقبل حين تسمعها تحس بأنها لا تحتاج إلى تفكير وتحليل. وهكذا اقتنعت أن السياسة نوع من التصوف، والسياسي يجب أن يكون فنانا متصوفا يستجلى المستقبل وتطوره وأن تكون له رؤية واضحة شفافة تعينه على طرح المشاكل المتباينة، وإيجاد الحلول المناسبة لكل مشكل.

وقد استدعي مرة من طرف بعض المعلمين الفرنسيين، وكان أغلبهم ينتسب إلى الحزب الاشتراكي الفرنسي، وكان رئيس الحكومة آنذاك اشتراكي، وكانوا ينوون تعجيزه لأنهم كانوا يعتقدون أنهم وحدهم أصحاب الرأي والمعرفة، وما عداهم فلا شيء. وكان سؤالهم الأول يحمل نوعا من السخرية وكان هكذا : «إن مطالبتك بالاستقلال أمر غير معقول ولا يمكن تصوره. إننا نطالب بالاندماج منذ ثلث قرن ولم نحصل حتى على فتات منه. فكيف يمكنك أنت أن تطلب استقلال الجزائر. فأجابهم ببساطة معهودة وبحماسه المتدفق بأن الاستقلال شيء طبيعي وممكن، أما الاندماج فغير طبيعي وغير ممكن لا عقليا ولا تاريخيا ولا عمليا. والاستقلال موجود منذ أوائل هذ القرن، ويتمثل في المجلس المالي الذي يستغله الكولون كما يريدون. فإذا نظم ديمقراطيا وشارك الشعب الجزائري في انتخابه يصبح برلمانا جزائريا، وبما أننا الأغلبية نكون أصحاب الحل والعقد. وأقول لكم - رغم تعلمكم - أنكم تعيشون في الأوهام لأنكم تخافون من الحقيقة، ولو فكرتم قليلا لوجدتم أن الاندماج خرافة يلهونكم بها أساطين السياسة الاستعمارية كفيوليت وغيره، ومهمتكم الأساسية كمعلمين أن تقوموا بدوركم في تعليم أبنائنا تعليما وطنيا، وتربوا هذا الجيل الذي بين أيديكم تربية صحيحة، وهكذا تكونون قد شاركتم في بناء وطنكم، فكل واحد منكم يمكنه أن يكون وطنيا إذا قام بدوره التربوي. وهنا بهتوا ولم يبق لهم إلا أن يتسللوا الواحد بعد الآخر وكأن على رؤوسهم الطير. وهكذا يكون الحوار هو السبيل إلى التفاهم وإلى احترام رأي الآخر.

الخطاب الرزين

كانت العادة أيام الأحد، العطلة الأسبوعية، أن تتعدد الاجتماعات السياسية صباحا. وفي هذا الأحد بالذات قد عقدت «لجنة السلم» تجمعا كبيرا بقاعة البلدية، ومسيرو اللجنة أغلبهم من المعلمين - إن لم نقل كلهم - ولهذا كان الاجتماع نخبويا أكثر منه جماهيريا.

وقد حضرت مع مصالي الحاج الاجتماع، وطلب الكلمة كعادته، وبعد ما صعد إلى المنصة شكر اللجنة على السماح له بالحديث، وبدأ بانتقاد بعض الخطباء الذين سبقوه، على تجاهلهم القضايا الوطنية تماما وترديدهم لكلمات السلم لشعب لا زال مغلول اليدين تحت قوانين الانديجينا وغيرها من القوانين الاستثنائية، وهو يعامل في وطنه كغريب أو كخادم لا حق له في الحياة، فالواجب عليكم، والحالة هذه، أن تعينوا هذا الشعب حتى يتحرر من قيوده، ويسترجع كرامته. هنالك يسمع لكم ويفهمكم ويساعدكم، وختم حديثه بنداء إلى العمل على تحرير الشعوب لضمان السلم في العالم.

وبعده قام أحد المعلمين الجزائريين، فانتقد مصالي الحاج على عدم إيمانه بالسلم، فما كان من مصالي إلا أن طلب الكلمة مرة ثانية ليجيب على الانتقاد الموجه إليه، وقال: يؤسفني أن أعود إلى المنصة لأهمس في أذن الأخ المعلم، بأن استيلاء إيطاليا على الحبشة بين سمع عصبة الأمم وبصرها ليست ببعيدة عنا.

وأنبه المتعلمين بأن التعلم شيء والسياسة شيء آخر، ولا يمكن لطبيب أو مهندس، أو معلم أن يكون سياسيا لأنه دخل المدارس وتعلم عدة علوم.

وقد انفض الاجتماع على الكلمات الأخيرة لمصالي.

كان مصالي - رحمه الله - حين يقف على منصة الخطابة لا يتزعزع عن مكانه، بل يبقى كأنه مسمر في موضعه، وكانت زوجته تود لو يقلع عن هذه العادة - لأن استقرار الخطيب الثوري في مكانه لا يتزحزح عنه، قد يعرضه لخطر ما كمؤامرة ضد حياته أو غيرها، لهذا يجب أخذ الحيطة والحذر.

ولقد سمعته يتحدث في التجمعات المرات العديدة، وبهرتني فصاحته وعدم تلعثمه وذهلت لقوة ذاكرته، فبإمكانه أن يرد على عدة معارضين، الواحد تلو الآخر والنقطة بعد أختها من غير تسجيل ولا توقف.



مصالي الحاج في الخدمة العسكرية بمدينة بوردو عام 1916.
(الأرشيف الخاص للسيدة بن قلفات، بنت مصالي)

3

مصالي الحاج والأمير شكيب أرسلان

كان الحديث يوما عن الأمير شكيب أرسلان والشخصيات التي تعرف عليها مصالي بجنيف. وقد حكى لنا عن الأيام التي قضاها هناك والمواضيع التي تطرقوا إليها معه. وقد كانوا يجهلون كل شيء عن الحالة السياسية والاجتماعية في الجزائر، ووجوده هناك كان وسيلة لتعريفهم بحقيقة الواقع. وقد جاءته رسائل من بعض الشخصيات حينما كان بتلمسان يطلبون منه بعض المعلومات.

وبالمناسبة طلب مني أن أكتب لهم رسائل بالعربية لربط الصلة معهم. وطلبات مصالي أوامر يجب أن تنفذ في حينها، ففكرت كثيرا لأنني لم أكن متعودا على مكاتبة مثل هذه الشخصيات، واستعنت بالشيخ الهادي السنوسي الذي كان صديقنا، وكان معلما بتلمسان لكتابة الرسالة الأولى لعطوفة الأمير شكيب أرسلان، ثم كتبت رسالة إلى رفيق الأمير السيد إسعاد الجابري، ورسالة أخرى إلى الصحفي الكبير والشاعر الوطني الشهير الأستاذ علي الغاياتي الذي كان منفيا من مصر، وكان مدير جريدة «منبر الشرق» التي كانت تصدر بجنيف

بالفرنسية، ثم بدأت تصدر في مصر بالعربية، وكان لها صدى كبير في الأوساط الوطنية.

شهادة الأمير

وبعد الرسالة وصلتنا أعداد من مجلة «الأمة العربية» التي كان يصدرها بجنيف، ووصلنا العدد الخاص الذي رد فيه الأمير على مجلة «Vu» التي اتهمته بالعمل مع إيطاليا وتهجمت على نجم الشمال الإفريقي بسببه، وقد أقحمها بردوده وشرح حدوده مع النجم ومع رئيسها مصالي الحاج.

لقد تعرف مصالي على الأمير شكيب أرسلان سنة 1932 بواسطة الأستاذ محمود سالم باي الذي كان يسكن بباريس بعدما كان قاضيا دوليا بمصر وهو صاحب مبادرة المؤتمر الإسلامي الأوروبي بجنيف سنة 1935.

وقد استفاد مصالي الحاج من الشخصيات السياسية التي تعرف عليها بجنيف وأفادها بتجربته النضالية في إطار التنظيم الجماهيري، منبها إياهم إلى أن سياسة النخبة المعتمدة على التصريحات والمقابلات قد فات أوانها، كما لفت نظرهم إلى إمكانية استغلال الأحزاب اليسارية وكتلها للوصول إلى بعض الحريات التي تساعد الشعوب العربية في السير إلى الأمام.

ويمكن القول إن زيارة الأمير باريس في أوائل 1937 كانت من تأثير مصالي.

وفي آخر شهر أوت أي بعد أسبوعين من وصوله إلى مسقط رأسه، قرر زيارة مدينة سيدي بلعباس بدعوة من جماعة من المحبين كانوا زاروه في تلمسان، وقد رافقته في هذا السفر. وفي

القطار أعاد علي ما أوصاني به من قبل لتنبيهه إلى الكلمات العربية التي ربما يستعملها في غير محلها أو لا تناسب الجو السائد. وقد أصبح يستعمل الكلمات الفصيحة في حديثه ويسألني عن معاني كل كلمة يسمعها أو تظهر له أثناء المحادثة، وقد أصبح له رصيد لا بأس به ويتحدث بطلاقة وبانتقاء الكلمات المعبرة. وقد نزلنا في ضيافة الأخ الجيلالي الباديسي الذي كان يزوره دائما في باريس وكان على اتصال وثيق به، وفي المساء استدعينا إلى عشاء في بستان وسط المدينة، وأثناء حديثه مع الجماعة التي كانت معنا أخبر بمعلومات محزنة في الناحية ومعاملات من طرف الكولون تقشعر لها الأبدان فاغتاظ وظهر عليه التأثر، دفعه إلى الانقطاع عن الأكل، وقبل إلقاءه الخطبة، كان ينفعل كثيرا ولا يمكن لإنسان أن يقترب منه أو يحدثه، وبما أني كنت بجانبه فقد أثر علي وتوقفت بدوري عن الأكل، وسرنا رأسا إلى النادي الأدبي حيث كان جمهور من الناس في انتظارنا، وبعد تقديمه من طرف رئيس النادي والترحيب به، دعاني أن ألقي كلمات بالعربية فقمت بالرغم مني ولم أتذكر ماذا قلت، ثم قام فألقى خطابا أودعه ما كان يختلج في صدره من حنق على الاستعمار. ونواحي سيدي بلعباس مراكز استعمارية معروفة حتى أنها كانت تنعت «ببرلين» وكانت مثالا للنازية المتوحشة.

وقد استراح مصالي بعد خطابه وانشرح كعادته للحديث مع الناس، ولم يكن مكبر الصوت معروفا، ولكن صوته كان يسمع من بعيد وقد زرت عائلتي التي كانت تسكن في الناحية، فأخبروني أنهم سمعوا كل ما قيل ولا سيما خطاب مصالي الذي كان صوته يغني عن المكبر.

وفي الصباح ذهبنا برفقة الأخ الجيلالي الباديسي إلى مدينة «عين تموشنت» وكان فيها فرع للنجم لا بأس به، وكان اليوم يوم أحد، يوم عطلة فالتقينا بلجنة الجبهة الشعبية ومعها «لجنة السلم» ورئيسها كان معلما هناك.

وقد تعرفنا عليه في تلمسان، أسبوعا من قبل واحتفلوا بنا، وأعيد إلى الأذهان حديث مصالي بتلمسان وأعجبوا به، وشكروه على أن نبههم إلى ما يجب عمله.

وعلى الساعة الثانية أقيم اجتماع بدار النقابة وألقى مصالي فيه خطابا باللغتين، وكان الاجتماع ناجحا، وبعده خرجنا لزيارة الحي الشعبي «خارج المدينة» حيث لا ماء ولا كهرباء ولا طرقا معبدة، إلا بيوت القصدير البالية، وأخذنا صورا مع أصحاب الحي في حالتهم التعسة، لتشر في الجرائد، وكان برفقتنا مسؤول من الحزب الشيوعي الفرنسي عرف مصالي بباريس وقضى مدة في الجزائر، وكان على أهبة الرجوع إلى فرنسا، وقال لمصالي قبل فراقنا معه، لا يمكن للحزب الشيوعي أن ينجح في الجزائر، لأنه ينظر إلى المشاكل الجزائرية بمنظار فرنسي، وتجربتي هنا كانت بغير نتيجة، وحركتكم هي الوحيدة التي يمكنها أن تنجح، لأنكم تحسنون إحساس هذا الشعب، وتتكلمون لغته وتعرفون طبائعه، ثم ودعنا بقرب المدينة وانصرف، ورجعنا في اليوم نفسه إلى مدينة سيدي بلعباس التي كنا ننتظر فيها من طرف «نادي النجاح» الذي ينتسب إلى جمعية العلماء وجماعة المؤتمر، وقد وجدناه غاصا بالجمهور حتى أننا لم ندخل إلا بشق الأنفس، وقد استقبلنا الأستاذ مصطفى بن حلوش الذي كان يلقي دروسه هناك وألقى كلمة قيمة رحب فيها برئيس النجم، وحث

الناس على حب الوطن والعمل من أجله، ثم دفعني مصالي إلى المنصة كعادته لأعرف بالحركة الوطنية وما تهدف إليه، وأشكرهم على هذا الاستقبال الحار ثم تقدم هو فألقى خطابا جامعا لا أتذكر محتواه، ولكنه نال تصفيقات حادة من طرف الجمهور وفي يوم الغد - الاثنين - رجعنا إلى تلمسان مع قطار الصباح.

وبمناسبة معاهدة مصر مع الإنجليز، ومعاهدة سوريا مع فرنسا بعث مصالي ببرقيتين الأولى إلى عاهل مصر، والثانية إلى رئيس الحكومة السورية، يهنئ فيها الشعبين الشقيقين ويتمنى لهما مستقبلا سعيدا، وقد قامت قيامة مصلحة البريد، لأنهم للمرة الأولى يبعثون ببرقيات من هذا النوع وقد تكلّفت البرقيتان خمسمائة فرنك في ذلك الوقت، ونشرت البرقيات في جريدة «الليالي» التي كانت تصدر بالجزائر.

وأقام «نادي الرجاء» في أول عهده احتفالا برئيس النجم، وحضر الاحتفال الشيخ البوديلمي وكان في أول عهده بتلمسان، وألقى كلمة حول الوطنية ثم استدعى مصالي من طرف «نادي السعادة» وكان الاحتفال خاصا بأصحاب النادي، وقد رحب به رئيس النادي في كلمة قصيرة.

دفعني مصالي كعادته إلى أن أقول كلمة قبله، فشكرت لنادي السعادة مواقفه من يوم تأسيسه في الثلاثينات.

وقلت بالخصوص لقد فتح النادي أبوابه للإصلاح، حينما كانت الأبواب مقفولة أمامه، وكان خير ملجأ لمؤتمر طلبة شمال إفريقيا في السنة الماضية، حينما أغلقت في وجهه قاعة البلدية، وها هو اليوم يستقبل الحركة الوطنية، ويكرم رئيسها في هذا الحفل البهيج، ثم أخذ الكلمة مصالي وتحدث عن الحالة الحاضرة

بإسهاب، وحث الحاضرين على العمل والنظام، لأن الحالة تستدعي منا جهدا كبيرا وتضحية.

كما زار الزوايا الموجودة بالمدينة على اختلاف مشاربها، وكان يعتبر الزوايا مراكز للتوعية والتكوين واجتماعاتنا الأولى كانت في الزوايا، ولا سيما الزاوية الدرقاوية المنسوبة إلى الشيخ بن يلس، والذي كان من مريديها في شبابه، كما كان يقوم بأداء صلاة الجمعة بعيدا عن المدينة حتى يتصل بالشعب والفلاحين. وهكذا زار جامع سيدي أبي مدين، وجامع عين الحوت، وقرى أخرى كان يذهب إليها مع بعض معارفه.

وقبل رجوعه إلى العاصمة نظمنا تجمعا كبيرا بنادي «أحباب روسيا» الذي كنا مشاركين فيها تكلم فيها بأسهاب عن قضايا الساعة، وشرح نظرية الحركة الوطنية، ونبه الحاضرين إلى أن الحرية الموجودة الآن مؤقتة، ولهذا فلا نغتر بالمظاهر، ودعا في الأخير إلى النظام والنوعية.

وبعد رجوعه من جولته في الشرق الجزائري، وصل إلى تلمسان في أوائل نوفمبر، وكان يتهيأ للسفر إلى باريس، وذهب معه إلى رئيس البلدية ليحصل على الورقة الصفراء التي بغيرها لا يمكن لأي جزائري أن يقطع البحر إلى فرنسا، وهذه الورقة تؤخذ من البلدية وبدأت التعطيلات والتهرب من مقابلته، وأخيرا هددهم بمظاهرة عظيمة، إن لم يحصل عليها في أقرب وقت، فما كان من رئيس البلدية «فالور» المعروف بمنهجيته، إلا أن استجاب له في الحين، وذهبت معه برفقة الكاتب العام بالبلدية إلى منزل «المير» وقد عرض علينا الكاتب العام السيارة بجانبه، ولكن مصالي رفض وذهبنا راجلين بجانب السيارة، والناس

يتساءلون عن هذه المسيرة وقضيتها، وكانت الساعة التاسعة صباحا حينما أخذ ورقته الصفراء وذهب رأسا إلى القطار.

ورجع إلى باريس يوم 8 نوفمبر 1936 ليجد في انتظاره قاضي التحقيق، ويجد مشاكل الحزب التي تفرعت عن غيابه، ويجد خيوط المؤامرة تتشابك ضد «نجم الشمال الإفريقي» ابتداء بتصريح «راوول أوبو» الكاتب العام لوزارة الداخلية في البرلمان الفرنسي، إلى تغيير سياسة الجبهة الشعبية فيما يخص المستعمرات والديمقراطية الجديدة.



مـصـالي الـحـاج

4

زوجة مصالي... السيدة والمدرسة

لقد كان حديثي الأول عن الزعيم مصالي الحاج، وتعرفي عليه وأحاديثي المختلفة معه، وتسجيلي لبعض أحاديثه الشيقة، وتوقعت في أواخر 1936 حينما قفل راجعا إلى باريس ليقدم تقريره إلى اللجنة المركزية عن زيارته للجزائر، وما قام به من اتصالات وتنظيم فروع ودراسة للوضعية العامة. وقد قضى ما يقرب من ثلاثة أشهر بين غرب الجزائر ووسطها وشرقها، وبعدما ركز في خطابه التاريخي يوم 2 أوت 1936 على مبدأ الاستقلال كحل جذري للقضية الجزائرية، وخطابه كان ضربة في الصميم للفكر الاندماجي الذي كان ضاربا أطنابه حتى عند الإصلاحيين الدينيين.

الزوجة القدرة

ومن الوفاء لهذه الشخصية العظيمة وللتاريخ - أيضا - أن أتطرق ولو بايجاز إلى دور المرأة في حياته، وإذا كان كل عظيم امرأة كما يقولون فلا مجال لنا إلا أن نتحدث عن هذا التأثير.

فقد كانت وراءه أولا : أمه التي قادت مسيرته في صغره وفي شبابه، وكان يكن لها كل حب وإجلال، ويتحدث عنها بفخر

واعتزاز. فبعد رجوعه من الخدمة العسكرية في فرنسا، ومحاولته الاستقرار بمسقط رأسه تلمسان، عصفت بها رياح الموت سنة 1922، وقد تألم لفراقها، وبعد موتها أحس بأنه لم يبق له ما يشده إلى البقاء في هذا الجو الخانق، وقد بدأت الشرطة تتابعه، عندما وقف على كرسي بمقهى «التيزاوي» ونادى بأعلى صوته، «يحيا مصطفى كمال»، تحي تركيا، وكانت المقهى غاصة بالناس وببعض السياح الأمريكان، وكان يغني فيها الشيخ العربي بن صاري الغناء الاندلسي، وقد جرب التجارة مع خاله في قرية «ديكارت» ورأى الاستغلال العائلي الذي كان ينتظره، وقد امتهن عدة حرف ولكنه لم يجد نفسه ولا حريته التي كان يحلم بها.

وقد قرر الانتقال إلى فرنسا ليجرب حظه، ويحقق بعضا من طموحاته، كما كان يأمل أن يجد في سفره هذا ما يعوض عن حنان أمه وغيابها إلى الأبد، ويفتح مواهبه وتغيير وضعيته.

وما أن حط بباريس وزار عائلة الطبيب التي كان متصلا بها بتلمسان في صغره، والتي ساهمت في تكوينه الثقافي بتقديمها له الكتب التاريخية والثورية لمطالعتها والتسلي بها، حتى تعرف على فتاة أحلامه، وكان الاختيار من صنع امرأة الطبيب التي كانت تعامله كابنها... وهكذا أصبحت هذه الفتاة المنتمية إلى عائلة عمالية والآتية من حدود ألمانيا، رفيقة حياته وساعده الأيمن في تخطي المتاعب، تقاسمه الأفراح والأحزان، راضية قانعة بدورها النضالي في سبيل إسعاده، وتحقيق رغباته.

لقد كانت تقوم بدور الوسيط بينه وبين المناضلين حينما يكون في السجن أو المهجر أو في المنفى أو الإبعاد. وما أكثر ما كان يتقلب بين هذه المراكز ابتداء من سنة 1934، وكانت الشعلة

المتقدة أثناء غيابه، فقد تكونت نخبة من المناضلين تحت تأثير شجاعتها ونشاطها، ومن ممارستها للنضال السياسي الذي لم نكن تعرف عنه شيئا.

لقد أقامت السيدة مصالي بتلمسان أكثر من تسعة أشهر، كانت تقوم خلالها بعدة أدوار: الدور السياسي بتتبعها لكل ما يجري في العالم من أحداث وتقلبات بواسطة الصحافة، لأن الإذاعة لم تكن قد انتشرت بعد، وتفسيرها لنا، وقد كنا في أوائل عهدنا نتابع الأحداث السياسية وفهمها والتلازم مع نتائجها، وكانت سنة 1936 غامرة بالأحداث والمفاجآت على الصعيد الدولي، فالفاشية والنازية من جهة والعالم الرأسمالي من جهة أخرى والحرب الأهلية بإسبانيا يجرب فيها المعسكر الشرقي والغربي أسلحتهما وديبلوماسيتهما.

السيدة - المدرسة

فلقد تعرفنا على أسلوب النضال السياسي في فرنسا، وخاصة كل حزب على حدة، وعلى استراتيجية الأحزاب اليسارية وتنظيماتها، ومواقفها بالنسبة للقضية الجزائرية وللمستعمرات. كما عرفنا منها أيضا ملامح من حياة مصالي الخاصة كمناضل وكزوج وكأب وعرفنا طبائعه، وأساليب تجاوبه مع الأحداث، وردود أفعاله المختلفة، قد تحدثت لنا عن أول خطاب له أمام الجمهور وارتباكه وتوقفه عن الحديث، وكيف بدأت تهدئه وتشجعه، وكانت هذه المرة الأولى والأخيرة التي تقع له فيها هذه الصدمة.

ثم دورها الاجتماعي الذي كان يتمثل في الاتصال بعائلة المناضلين ومساعدتهم على تبني الأساليب الحديثة في تربية الأبناء والتمريض وعلى أساليب الطبخ البسيط والمفيد.

وكان أن تحدثت بالنيابة عن زوجها في اجتماع وفد المؤتمر الإسلامي الجزائري أثناء زيارته لتلمسان، وكان من المفروض أن يحضر مصالي نفسه، ولكن وقع له تعطيل في المواصلات، وذهبت في غياب زوجها إلى سيدي بلعباس لتعين المناضلين هناك على أخذ الكلمة وانتقاد المؤتمر فيما يخص إلحاق الجزائر بفرنسا، وكانت لا تفهم ترددنا أمام الخصوم وخوفنا من أخذ الكلمة ولقد اعتادت هي الحياة السياسية في فرنسا، وممارسة الحرية في الحديث وإبداء رأيها بشجاعة، أما نحن فقد كنا نجر وراءنا ركاما من التخلف وأودية من التردد، ولم نتعود بعد على الحديث أمام الجماهير، ولا الدفاع عن رأينا.

أذكر أنها تلقت رسالة من زوجها بعد وصوله إلى باريس، كتبها بأسلوب ساخر على طريقة الأغنية التي كانت معروفة آنذاك، وعنوانها : أيتها السيدة لاماركيز كل شيء على ما يرام، وأصلها أن خادمة كانت تحرس قصر السيدة لاماركيز، وقد احترق القصر وضاعت محتوياته، وكانت تحكي لها بالغناء وتعيد عند كل مقطع، ومع هذا كل شيء على ما يرام.

وقد بدأ رسالته هكذا : فعشنا الصغير الذي تركناه، قد فقد أشياء هامة، ولكن الحمد لله فكل شيء على ما يرام، وفي حركتنا السياسية، وجدت جوا غير الجو الذي تركناه: مناوشات وانتقادات ومع هذا فكل شيء على ما يرام، وقد دعيت من طرف قاضي التحقيق لأجيب عن بعض التهم القديمة المتجددة، وعن ما تبيته الحكومة الجديدة، وحاولت بلباقتي وتمرسي لمثل هذا التهم أن أقلل من شأنها، وأنفي البعض منها، وبالرغم من هذا كله، فكل شيء على ما يرام كما تقول الأغنية.

وكانت رسائله مع زوجته قطع أدبية سياسية، لو احتفظ بها لكانت تحفة نستشف منها أسلوبه الساخر وتعبيره عن واقعه المر بروح فياضة بالنكتة وتذليل الصعاب، كما أن أجوبتنا له كانت أكسيرا يمتزج فيها الحب والاعتزاز بالذكريات الحلوة التي عرفاها معا، وبالأشياء الجميلة والمريحة التي تمتعا بها معا وأخيرا بالقراءات المسلية والمفيدة التي لا زالت في ذاكراتهما يرتشفان منها كلما حن كل واحد منهما إليها.

وبعد حل نجم الشمال الإفريقي (26 جانفي 1937) وتأسيس حزب الشعب الجزائري (11 مارس 1937) انتقلت إلى العاصمة حينما رجع زوجها وبدأ يركز النظام الجديد لحزب الشعب في الجزائر.

وقد ظهرت بجانبه في مظاهرات 14 جويلية الأولى من نوعها في الجزائر، تحت العلم الوطني - الذي كان من صنع يدها في فرنسا 1934، وشاركت في صنعه بتلمسان، وهو الذي وصل إلى العاصمة.

وبعد اعتقال زوجها ورفاقه (27 أوت 1937) تصدرت الجماهير للاحتجاج بباب السجن، وذهبت إلى الولاية العامة للاحتجاج على رأس وفد من الحزب، كنت من ضمنه، ولم تقبل إلا هي فقط، وحاولا استمالتها إليهم ولكن من غير طائل، وعندما أضربوا عن الطعام للمطالبة بالسجن السياسي (من أول أكتوبر إلى العاشر منه) كانت الوحيدة التي يمكنها أن تدخل إلى الولاية العامة وتحتج على المعاملة التي يعامل بها الوطنيون في عقر دارهم وتركهم يموتون جوعا وبعد حصولهم على السجن السياسي هي التي هيأت لهم الأكل المناسب لحالتهم الصحية.

وأمام المحاكم كانت الأولى التي تقابل المحامين - سواء من فرنسا أو من الجزائر - وتنظر معهم في الطرق التي يدافعون بها عن المعتقلين. كما كانت نعم العون لرفاق مصالي في السجن، وأذكر بهذه المناسبة أنها هي التي كانت السبب في وصول الكتب والألبسة إلينا، لأن عائلاتنا كانت بعيدة عنا وليس في إمكانها أن تقوم بأي شيء في صالحنا، حتى رسائل العائلة كانت تختفي عنا كثيرا.

وبما أن السيدة مصالي كانت كثيرة الاهتمام بصحة زوجها ليقوى على المقاومة، فقد تخطط له ما يحتاجه جسمه من مقويات وفيتامينات، وما تحتاج إليه قامته وخطواته وتقدمه في السن، كل هذه الأشياء كانت مخططة - من طرفها - ومدروسة بصفة دقيقة، أما هو فكان يهتم بحلقه لأنه يتحدث كثيرا فالسكر وقطع الحلوى لا ينساها.

5

نداء مصالي إلى الأمة الجزائرية

صدر في الجزائر بعد رجوعه إلى فرنسا في صفحة كبيرة ووزع بالجزائر كلها. النص الفرنسي لم نطلع عليه. وأظن أن مصالي أملى على مفدي زكريا المضمون وزكريا تصرف فيه كعادته فالنداء لمصالي والأسلوب والتوسع لشاعرنا مفدي زكرياء.

نداء 12 نوفمبر 1936

من مصالي حاج إلى الأمّة الجزائرية الكريمة

أَيُّهَا الشَّعْبُ الجَزَائِرِيُّ !!

سَلَامٌ عَلَيْكَ من ابن أَقْسَمَ بِاللَّه أَنْ يُضَحِّي فِي سَبِيلِ حُرِّيَّتِكَ وَسَعَادَتِكَ حَتَّى آخِرَ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِه، وَآخِرَ جُزْءٍ مِنْ رُوحِه، وَآخِرَ نَفَسٍ مِنْ رَمَقِ حَيَاتِه ! ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[1]

سَلَامٌ عَلَيْكَ يَا شَعْبُ يَوْمَ وُلِدْتَ حُرّاً عَزِيزاً، وَيَوْمَ نَشَأْتَ حُرّاً شَرِيفاً، وَيَوْمَ تُصْبِحُ بِإِذْنِ اللهِ حُرّاً طَلِيقاً، تُرَفْرِفُ عَلَى هِضَابِ المَجْدِ أَعْلَامُكَ، وَتَتَنَاوَلُ نُجُومَ السَّمَاءِ أَحْلَامُكَ، وَيَنْتَصِرُ لَكَ فِي العَالَمِينَ إِيمَانُكَ وَإِسْلَامُكَ

1. الواقعة [56] الآية 76

بِفَضْلِ تَضْحِيَاتِ أَبْنَائِكَ البَرَرَةِ المَفْتُولِ السَّوَاعِدِ، المُفْعَمِينَ قُوَّةً وَفُتُوَّةً وَطَنِيَّةً وَإِيمَاناً، الوَاثِقِينَ بِقَوْلِ رَبِّ العَالَمِينَ :

﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ﴾[1]

أَيها الشعب الجزائري الكَريم

إِنِّي أَشْكُرُ لَكَ عَظِيمَ احْتِفَائِكَ بِي، وَجَلِيلَ تَقْدِيرِكَ لِهَذَا الابْنِ الضَّعِيفِ وَالْتِفَافَكَ حَوْلَهُ، وَحُسْنَ إِقْبَالِكَ عَلَيْهِ. وَإِنَّ هَذَا الإِقْبَالَ المُدْهِشَ الذي لَقِيتَنِي بِهِ الأُمَّةُ أَنَّى حَلَلْتُ وَهَذِهِ الإِحْسَاسَاتُ الشَّرِيفَةَ الَّتِي كَانَتْ تَغْمُرُنِي أَنَّى نَزَلْتُ إِلاَّ بُرْهَاناً صَحِيحاً عَلَى أَنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ المُبَارَكَةَ أَدْرَكَتْ وَاجِبَهَا فِي الحَيَاةِ وَأَصْبَحَتْ تُمَيِّزُ بَيْنَ مَنْ يُرِيدُ لَهَا الخَيْرَ وَالحَيَاةَ وَبَيْنَ مَنْ يُرِيدُ لَهَا الفَنَاءَ وَالاضْمِحْلاَلَ عَلَى أَنَّ هَذَا الإِكْبَارَ وَهَذَا التَّقْدِيرَ لَيْسَ لِشَخْصِي الضَّعِيفِ الفَانِي. إِنَّمَا هُوَ لِهَذَا المَبْدَإِ السَّامِي الشَّرِيفِ، وَتِلْكَ الأَمَانَةِ الوَطَنِيَّةِ المُقَدَّسَةِ الَّتِي أَخَذْنَا عَهْداً أَمَامَ اللَّهِ وَالمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ أَنْ نَصُونَهَا مِنْ يَدِ العَابِثِينَ فِي تَحْقِيقِهَا وَلَوْ قَطَعُوا مِنَّا الوَتِينَ، وَبَلَغَتِ الرُّوحُ التَّرَاقِيَ وَانْقَطَعَ آخِرُ رَمَقٍ مِنْ حَيَاتِنَا وَالَّتِي وَهَبْنَاهَا رَاضِينَ مُطْمَئِنِّينَ حَبْساً وَوَقْفاً لِهَذَا الوَطَنِ العَزِيزِ المُفَدَّى. وَإِنَّ وَطَناً يَشْعُرُ هَذَا التَّعَلُّقَ بِالمُخْلِصِينَ مِنْ رِجَالِهِ لَهُوَ شَعْبٌ حَيٌّ يَجِبُ أَنْ يَتَبَوَّأَ مَقَامَهُ فَوْقَ الشَّمْسِ المُشْرِقَةِ رَافِعَ الرَّأْسِ، شَامِخَ الأَنْفِ، مَوْفُورَ الكَرَامَةِ. فَحَيَّاكَ اللَّهُ أَيُّهَا الشَّعْبُ وَبَيَّاكَ ! .

أَيُّهَا الشَّعْبُ الجَزَائِرِي

قَدْ تَبَيَّنَ لَكَ فِي بَحْرِ هَذِهِ الحَوَادِثِ السِّيَاسِيَّةِ الأَخِيرَةِ مَنْ هُوَ المُخْلِصُ المُجَاهِدُ وَمَنْ هُوَ المُذَبْذَبُ المُقَامِرُ، وَمَنْ هُوَ المُنَافِقُ المُتَاجِرُ. وَقَدْ رَأَيْتَ حِزْبَكَ الوَطَنِيَّ الجَزَائِرِيَّ الوَحِيدَ يَخْرُجُ مِنَ

---

1. العنكبوت [29] الآية 69

المَعْمَعَة سَاطعاً كَفَلَق الصُّبْح صَافياً كَالضَّمير الحرّ. ولَمْ يتزعزعْ في جهَاده، ولَمْ يتزحزحْ قيْدَ شبْر عَنْ مبَادئه، ولَمْ يتسامحْ قطّ في أصغر حقُوقكَ المُقدَّسَة. وذَلكَ لأنّهُ يَعملُ بضَمير وإخلاَص وثبَات وثقَة باللّه ولأنَّهُ يُدينُ بأنَّ كلَّ مَنْ تسامحَ في حقُوق بلاَده ولَو مرَّة واحدَة يعدُّ أبَدَ الدَّهر مزعزعَ العَقيدَة سَقيمَ الوُجدَان ﴿وأَنَّ هَذَا صرَاطي مُستَقيماً فاتّبعوهُ ولاَ تتَّبعُوا السُّبلَ فتَفرَّقَ بكُمْ عَن سَبيله ذَلكُمْ وَصَّاكُم به لَعَلَّكُم تتَّقُونَ﴾[1] وقَدْ برْهَنَ لَكَ في تَاريخ جهَاده خَمسَةَ عشَرَ سنَةً في سَبيل إسعَاد هَذَا الوَطَن ومَا لَقيَهُ منْ ضُرُوب التَّنكيل والتَّعذيب والتَّشرّد والاضطهَاد في أعمَاق السُّجُون وغيَاهب السّيلُونَات إنَّهُ حزْبٌ يعملُ لغَايَة شَريفَة ويَجبُ أنْ ينَالهَا طَوْعاً أوْ كَرْهاً قَصُرَ المَدَى أمْ طَالَ. وإنَّهُ هُوَ هُوَ بالأَمس أيَّامَ العَسَف والجَور الفَاشَستي الغَاشم كمَا هُوَ هُوَ اليَوْم في عَصْر الوَاجهَة الشَّعبيَّة البَاسم، وإنَّ مطَالبَهُ هيَ هيَ لَمْ تتغيّرْ ولَمْ تتبدّلْ، وإنَّ رجَالَهُ هُمْ هُمْ لَمْ ينسلخُوا ولَمْ يتجنّسُوا ولَمْ يندمجُوا ولَمْ يتفرّقُوا، وسَيبْقَوْنَ كذَلكَ مَا دَامَت الأرْضُ أرْضاً والسَّمَاءُ سَمَاءً، ومَا دَامَ الشَّرَفُ يُسمَّى شَرَفاً والوَطَنيَّةُ تُسمَّى وطَنيَّةً، والآيَةُ صَارخَةٌ : ﴿واصبرْ ومَا صَبرُكَ إلاَّ باللّه ولاَ تَحزَنْ علَيهمْ ولاَ تَكُ في ضَيْق ممَّا يَمْكُرُونَ إنَّ اللّهَ معَ الَّذينَ اتَّقَوا والَّذينَ هُمْ مُحسنُونَ.﴾[1] ﴿ولَيَنصُرَنَّ اللّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إنَّ اللّهَ لَقَويٌّ عَزيزٌ﴾[2].

إنَّ للحزْب الوَطَني لَتَاريخاً ذَهَبياً مكتُوباً بدَم الشَّرَف علَى دَوَاوين البُطُولَة، ومَاضياً مفْعَماً بجَلاَئل الأعمَال. فقَدْ صَاحَ صَيحَتَهُ في أذُن

1. النّحل [16] الآية 127–128

2. الحج [22] الآية 40

الاستعمار الغاشم بباريس حين سكت الناس، وأقدم حين أحجم الناس، وتشجع واستبسل حين جبن الناس وخارت قواهم وأسكتهم الخوف عن كلمة حق يصرحون بها أمام دهاقين الجور والعسف. إذ ذاك صرخ رجال الحزب الوطني وحدهم في وجه الاستعمار: إنَّ الجزائر خلقت حرَّة سعيدة يجب أن تحي حرَّة سعيدة. فلاقوا من جرَّاء ذلك ألواناً من العذاب ﴿فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا﴾[3] وأنهم يعاهدونك أيها الشعب الكريم أنهم سيبقون على تلك المبادي لا يخافون ولا يجبنون ولا يتزحزحون مهما كلفهم ذلك من الضحايا. فلقد امتحنتهم أيها الشعب في أيام البلاء فوجدتهم صابرين، فامتحنتهم في أيام الرخاء تجد ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾[1] وليسوا كهؤلاء القنافذ الهدَّاجين، كانوا مختبئين أيام المحنة فظهروا اليوم يساومون ثقة الشعب الغر الكريم ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم﴾[2]

﴿الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين.﴾[3]

أيها الشعب الجزائري

إنَّ مبادئ حزبك الوطني الذي أسس على الملية من أول يوم هي السعي لتحريرك بالطرق المشروعة في دائرة إسلامك وجنسيتك الغالية المتألقة في بطون الأجيال والدفاع عن كرامتك والذود عن حماك في محيط ذاتيتك الشريفة المقدسة – تلك هي مبادئنا التي

3. آل عمران [9] الآية 146
1. المؤمنون [23] الآية 8
2. محمد [47] الآية 21
3. العنكبوت [29] الآية 1–2–3

فَطَرْنَا عَلَيْهَا وَنَشَأْنَا عَلَيْهَا وَقَدَّمْنَاهَا لِلْحُكُومَةِ فِي كُرَّاسٍ يَوْمَ 23 جوان 1936 بِوَاسِطَةِ وَفْدٍ مِنْ رِجَالِنَا، وَعَلَيْهَا نَبْقَى، وَعَلَيْهَا نَحْيَا، وَعَلَيْهَا نَمُوتُ – إِنْ وَجَبَتِ الْمَوْتُ ! نَحْنُ نُرِيدُ أَنْ تَكُونَ لُغَتُكَ الْعَرَبِيَّةُ لُغَةً رَسْمِيَّةً بِالبِلَادِ، نُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مَسَاجِدُكَ وَأَوْقَافُكَ بِيَدِكَ تَتَصَرَّفُ فِيهَا بِحَسَبِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ. وَنَطْلُبُ لَكَ بَرْلَمَاناً جَزَائِرِياً يَضْمَنُ لَكَ ذَاتِيَتَكَ وَحُقُوقَكَ أَمَامَ الأَغْلَبِيَّةِ السَّاحِقَةِ مِنَ الْمُسْتَعْمِرِينَ. وَلاَ نُرِيدُ إِذْلاَلَكَ عَلَى يَدِ أَقَلِّيَةٍ ضَئِيلَةٍ فِي الْبَرْلَمَانِ الْفَرَنْسِي قَدْ لاَ تَنْجُوا ضَمَائِرُهُمْ مِنْ عَبَثِ الْعَابِثِينَ !... وَلاَ نَطْلُبُ إِلْحَاقَكَ بِفَرَنْسَا لِتَكُونَ فَرَنْسَوِياً عَزِيزاً كَمَا يَقُولُونَ ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾[4] ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾[5] يَا اللهِ لِلْجَزَائِرِيِّينَ ! الاِنْدِمَاجُ، أَوِ الإِلْحَاقُ، أَوِ الاِرْتِبَاطُ، أَوِ الاِمْتِزَاجُ، أَوِ الاِقْتِرَانُ، أَوِ الْمَوْتُ أَوِ الْفَنَاءُ، أَوِ الاِضْمِحْلاَلُ... مُتَرَادِفَاتٌ مَعْنَاهَا وَاحِدٌ يَلُوكُهَا قَوْمٌ وَلاَ يَفْهَمُونَ مَعْنَاهَا وَيَفْتَخِرُونَ بِطَلَبِهَا فِي عَهْدِ الْوَاجِهَةِ الشَّعْبِيَّةِ وَلاَ يُدْرِكُونَ مِقْدَارَ مَا تَحْوِيهِ مِنَ الْخِزْيِ وَالْعَارِ وَمِنَ الْمُضْحِكَاتِ فِي آنٍ وَاحِدٍ:

وَكَمْ بِالْجَزَائِرِ مِنْ مُضْحِكَاتٍ * وَلَكِنَّهُ ضَحِكٌ كَالْبُكَاءِ

الْيَوْمَ ضَحِكَ الشَّرْقُ بِمِلْءِ شِدْقَيْهِ عَلَى سَخَافَتِنَا وَيَسْخَرُ الْغَرْبُ بِمِلْءِ فَكَّيْهِ عَلَى أَذْقَانِنَا، وَتَبَرَّأَ شَمَالُ إِفْرِيقِيَا مِنْ هَذِهِ السِّيَاسَةِ الَّتِي قَدْ لاَ يَتَشَرَّفُ بِانْتِسَابِنَا إِلَيْهِ بِهَا. أَمَا آنَ لِهَذَا النَّوْمِ مِنْ يَقَظَةٍ ؟ أَمَا آنَ لِهَذِهِ الذَّبْذَبَةِ مِنْ نِهَايَةٍ ؟ أَمَا آنَ لِهَذَا اللَّيْلِ مِنْ آخِرٍ ؟ بَعْدَ (مِائَةٍ وَسِتٍّ وَسِتِّينَ اسْتِعْمَاراً نَطْلُبُ الاِنْدِمَاجَ !) يَا لَلْعَارِ وَيَا لَلْفَضِيحَةِ ! الاِنْدِمَاجُ، الاِلْتِحَاقُ

---

4. الكهف [18] الآية 5
5. المدثر [74] الآية 35

- مَا أَفْظَعَهَا كَلِمَةً ﴿تَحْسِبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾[1] - ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾[2]. إِنَّ شَعْباً يَطْلُبُ الانْدِمَاجَ فِي شَعْبٍ آخَرَ لَهُوَ شَعْبٌ قَطَعَ الصِّلَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ تَارِيخِهِ وَأَجْدَادِهِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبْنَائِهِ مِنْ بَعْدِهِ. وَنَحْنُ الجَزَائِرِيِّينَ لَنَا تَارِيخٌ مَجِيدٌ، وَلُغَةٌ شَرِيفَةٌ، وَذَاتِيَةٌ مُقَدَّسَةٌ، وَضَمِيرٌ حُرٌّ، وَهَذِهِ كُلُّهَا تَأْبَى عَلَيْنَا أَنْ نَقْطَعَ الصِّلَةَ بِهَا وَنَطْلُبَ الإِلْحَاقَ. وَتُنْذِرُنَا إِنْ فَعَلْنَا - قَبْراً مَحْفُوراً، وَكَفَناً مَنْشُوراً، وَهُنَاكَ نَدْعُو ثُبُوراً، فَلاَ نَجِدُ نَصِيراً، وَلاَ نَلْقَى ظَهِيراً، وَلَئِنْ طَلَبَ السِّينِيغَال إِلْحَاقَهُمْ فَهَلْ ذَاتِيَتُنَا كَذَاتِيَتِهِمْ ؟ وَهَلْ تَارِيخُنَا كَتَارِيخِهِمْ ؟ كَلاَّ وَأَلْفُ كَلاَّ فَنَحْنُ أَشْرَافٌ مِنْ أَشْرَافٍ مِنْ أَشْرَافٍ، يَجِبُ أَنْ نَبْقَى أَشْرَافاً لأَشْرَافٍ.

وَإِنَّا لَنَخْتَارُ أَنْ نَبْقَى مُضْطَهَدِينَ جَزَائِرِيِّينَ مِنْ أَنْ نَصِيرَ أَحْرَاراً فَرَنْسِيِّينَ. تِلْكَ كَلِمَةٌ وَإِنْ أَحْرَجَتْ بَعْضَ النَّاسِ إِلاَّ أَنَّهَا كَلِمَةُ حَقٍّ نَقُولُهَا وَلاَ نُبَالِي لِيَحِقَّ الحَقُّ وَيَبْطُلَ البَاطِلُ. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾.[3]

عَلَى رِسْلِكُمْ يَا طُلاَّبَ الإِلْحَاقِ !!

وَمَهْلاً يَا خُصُومَنَا السِّيَاسِيِّينَ. لاَ تَظُنُّوا أَنَّ الأُمَّةَ مَعَكُمْ، فَلَسْنَا نَظُنُّ أَنَّ جَزَائِرِياً وَاحِداً يَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَطْلُبُونَ الإِلْحَاقَ وَيَفْهَمُ مَعْنَاهُ يَرْضَى بِذَلِكَ ! وَلَكِنَّكُمْ جَرَفْتُمْ مَعَكُمُ البُسَطَاءَ بِاسْمِ المَطَالِبِ الأُخْرَى الشَّرِيفَةِ الَّتِي طَلَبْنَاهَا وَقَلَّدْتُمُونَا فِيهَا !

وَلَوْ عَلِمُوا أَنَّ الإِلْحَاقَ (رَأْسَمَالُ) تِلْكَ المَطَالِبِ لَكَانَ لَهُمْ مَعَكُمْ مَوْقِفاً غَيْرَ هَذَا !

1. النور [24] الآية 15
2. النور [24] الآية 17
3 آل عمران [3] الآية 118

فَعَلَى رِسْلِكُمْ لاَ تَتَسَلَّلُوا لِوَاذاً مِنَ المَسْؤُولِيَّةِ النَّبِيلَةِ وَلاَ تَتَضَايَقُوا مِنْ مُفَاجَآتِ مَصَالِي وَتَعْقِيبَةٍ مَعَ انْتِمَاءَاتِكُمْ. فَلِمَصَالِي الحَقُّ وَلِلأُمَّةِ جَمْعَاءَ أَنْ تُنَاقِشَكُمُ الحِسَابَ العَسِيرَ. تُحَاسِبُكُمْ عَلَى النَّقِيرِ وَالقِطْمِيرِ لأَنَّ المَوْقِفَ مَوْقِفُ حَرَجٍ وَالمَسْأَلَةُ مَسْأَلَةُ حَيَاةٍ أَوْ مَوْتٍ وَالحُكْمُ حُكْمٌ فِي مَصِيرِ أُمَّةٍ كَامِلَةٍ لاَ فِي مَصِيرِ شَرِكَةٍ تِجَارِيَةٍ وَهَذِهِ الأُمَّةُ لاَ تَرْضَى أَنْ تَرْجِعَ فِرَنْسِيَّةً أَحْبَبْتُمْ أَمْ كَرِهْتُمْ وَلاَ تَرْضَى أَنْ يُقَامِرَ أَحَدٌ بِحُقُوقِهَا عَلَى مَائِدَةٍ - الأَخْذِ بِالخَاطِرِ - أَوْ أَنْ يُمَاكِسَهَا فِي سُوقٍ - مُرَاعَاةِ الظُّرُوفِ فَلاَ مَنْزِلَةَ بَيْنَ المَنْزِلَتَيْنِ يَا قَوْمُ ! إِمَّا وَطَنِيٌّ صَمِيمٌ ! وَإِمَّا خَائِنٌ أَثِيمٌ ! وَلَنْ نَتَسَامَحَ مَعَكُمْ فِي التَّلاَعُبِ بِأَصْغَرِ حَقٍّ مِنْ حُقُوقِ هَذِهِ الأُمَّةِ المِسْكِينَةِ الَّتِي أَخَذْنَا عَلَى عَاتِقِنَا عَهْدَ التَّفَانِي فِي سَبِيلِهَا وَالتَّضْحِيَةَ لِتَحْرِيرِهَا.

مَا أَسْخَفَ مَنْ يَعْتَقِدُ مِنْكُمْ بِأَنَّنَا فِي دَوْرِ - التَّجْرِبَةِ - وَمَا أَخَفَّ عَقْلَهُ عَلَى حَدِّ قَوْلِ العَامَّةِ - يَتَعَلَّمُوا الحِجَامَةَ فِي رُؤُوسِ اليَتَامَى - وَهَذِهِ التَّجْرِبَةُ الَّتِي تَتَبَجَّحُونَ بِهَا بِمَثَابَةِ المُقَامَرَةِ لِتَجْرِيبِ البَخْتِ أَوْ كَمَنْ يُجَرِّبُ شُرْبَ كَأْسٍ مِنَ الخَمْرَةِ لِيَعْلَمَ هَلْ هِيَ مُسْكِرَةٌ أَمْ لاَ ؟ أَوْ كَمَنْ يُجَرِّبُ وَضْعَ السَّمَاءِ تَحْتَ الأَرْضِ وَالأَرْضِ فَوْقَ السَّمَاءِ. فَمَا أَبْرَدَ هَذِهِ السَّخَافَاتِ وَمَا أَسْمَجَهَا. فَلاَ تَجْرِبَةَ فِي البَدِيهِيَّاتِ، وَلاَ مُقَامَرَةَ بِحُقُوقِ الأُمَّةِ. وَمَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ. وَهَيْهَاتَ أَنْ تَسْتَخْرِجَ مِنَ الحَنْظَلِ عَسَلاً، وَمِنَ القَارِ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ.!

فَوَالَّذِي خَلَقَ الجَزَائِرَ وَخَلَقَنَا جَزَائِرِيِّينَ وَمَلأَ قُلُوبَنَا بِالعَقِيدَةِ الرَّاسِخَةِ وَالإِيمَانِ الصَّحِيحِ لاَ نَفْتَأُ نُقَوِّمُ اعْوِجَاجَكُمْ فِي مَسْأَلَةِ الإِلْحَاقِ وَلاَ نَنْفَكُّ نُبَاهِيكُمْ أَمَامَ مَنْ شِئْتُمْ وَإِذَا أَرَدْتُمُ الإِنْصَافَ تَعَالَوْا نَسْتَفْسِرِ العَالَمَ الشَّرْقِيَّ كُلَّهُ وَنُكَاتِبْ زُعَمَاءَ الأَقْطَارِ

الإسْلاَمِيَّةِ أجْمَعِينَ، وَلنَجْعَلِ الإنْصَافَ رَائِدُنَا وَالحَقَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ – ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾[1]!

أيُّهَا الخُصُومُ السِّيَاسِيُّونَ

طَالَمَا قَاوَمْتُمُونَا بِطُرُقٍ شَرِيفَةٍ وَغَيْرِ شَرِيفَةٍ، وَطَالَمَا أَقَمْتُمُ الدِّعَايَاتِ ضِدَّ حِزْبِنَا الوَطَنِيِّ وَضِدَّ بَرْنَامَجِنَا المَلِّيِّ. أمَّا نَحْنُ فَلاَ نُجِيبُكُمْ بِالمِثْلِ لأنَّنَا قَوْمٌ أَشْرَافٌ وَمَصْلَحَةُ الجَزَائِرِ فَوْقَ الجَمِيعِ بَلْ نَشْفَقُ لِحَالَتِكُمْ الَّتِي تَسْتَدْعِي الشَّفَقَةَ وَنُجِيبُكُمْ بِإِخْلاَصِنَا وَأَعْمَالِنَا وَثَبَاتِنَا. فَهَوِّلُوا أَوْ عَرْقِلُوا أَوْ عَوِّلُوا فَلَنْ يَزِيدَنَا ذَلِكَ إِلاَّ ثَبَاتاً وَرُسُوخاً وَانْتِشَاراً لِدَعْوَتِنَا وَلَنْ يَزِيدَكُمْ ذَلِكَ إِلاَّ ذَبْذَبَةً وَافْتِرَاقاً وَفَشَلاً وَهَاهِيَ الحَوَادِثُ شَاهِدَةٌ، فَأَنْتُمْ لَمْ تُبَرْهِنُوا حَتَّى عَلَى قُدْرَتِكُمْ عَلَى الاحْتِفَاظِ بِوَحْدَتِكُمْ وَلَوْ شَهْراً وَاحِداً. فَكَيْفَ تَحْتَفِظُونَ بِالأُمَّةِ سَنَوَاتٍ؟ فَهَاهِيَ فُلُولُكُمْ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ وَهَاهِيَ طَلاَئِعُكُمْ تَنْصِبُ لَكُمُ الحَبَائِلَ وَتَدُسُّ لَكُمُ الدَّسَائِسَ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ. وَهَا قَدْ أَصْبَحْتُمْ مُتَنَاقِضِينَ شِيَعاً ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾[2]. أمَّا نَحْنُ فَقَدْ ثَبَتْنَا مُدَّةَ خَمْسَةَ عَشَرَ سَنَةً كَامِلَةً عَلَى بَرْنَامَجٍ وَاحِدٍ وَعَلَى سِيرَةٍ وَاحِدَةٍ وَلَنْ نَتَفَرَّقَ أَوْ نَتَزَحْزَحَ بِإِذْنِ اللَّهِ مَا دَامَ فِينَا قَلْبٌ يَخْفِقُ وَعِرْقٌ يَنْبِضُ بِحُبِّ هَذَا الوَطَنِ العَزِيزِ المُفَدَّى وَلَمْ يَطْعَنْ أَحَدٌ مِنَّا قَطُّ فِي لُغَةِ آبَاءِهِ وَتَارِيخِ أَجْدَادِهِ وَلَيْسَ بَيْنَنَا مُتَجَنِّسُونَ! أمَّا أَنْتُمْ فَهَاهُوَ أَحَدُ مُتَجَنِّسِيكُمْ يَخْطُبُ بِاسْمِكُمْ فِي «تِيزِي وزُّو» وَيَسُبُّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ وَيَتَهَكَّمُ عَلَى مَنْ طَلَبَ أَنْ تَكُونَ لُغَةً رَسْمِيَّةً لِلْبِلاَدِ.

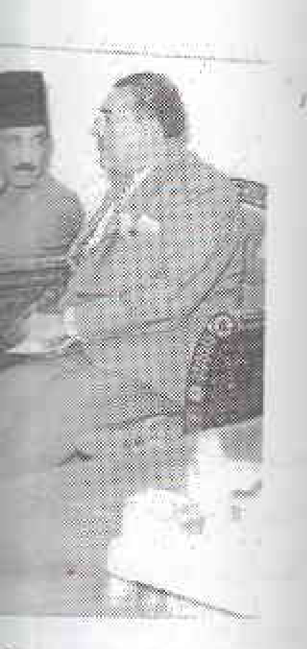
---

1. آل عمران [3] الآية 82
2. العنكبوت [29] الآية 25

وَهَاهُوَ بوهران يَطْعَنُ التَّاريخَ الجزائري في الصَّميم وَأَنْتُم سَاكِتُونَ تُصَفِّقُونَ وَهَا نَفْسهُ عَيْنه بَعْدَ ذَلكَ بيومين يَطْعَنُ سُمْعَتَكُمْ وَسُمْعَةَ الإِسْلاَمِ وَالجَزَائِر في أَكْبَر هَيْئَاتها بتَنَاوله الخَمْرَ نَهاراً جِهاراً أَمَامَ نُخْبَةِ الشَّعْبِ في مَأْدُبَة الشَّعْب وَهَاهُوَ اليَوْم يَنْصب الحَبَائِلَ للْوَقيعَة بكُمْ وَإِسْقَاط جَامعَتكُمْ مَعَ عَدُوّكُم اللَّدود الَّذي كَانَ بالأَمْس رَئيسَهُ عَلَيْكُمْ وَكَانَ يَطْعَنُكُمْ سراً وَعَلاَنيَّةً وَأَنْتُم صَامدُونَ - مَنْ أَعَانَ ظَالماً ابْتَلَي به - وَهَاهُوَ الآخَرُ وَالآخر كُلُّ ذَلكَ مُسَجَّلٌ في كتَاب مَعْلُوم ليَوم لاَ رَيْبَ فيه وَمَا دَامَ صَنَائعُ الاسْتعْمَار يَلْعَبُونَ بكُمْ فَلَنْ تَأْمَنُوا عَلَى كَرَامَتكُمْ وَكَرَامَة هَذَا الوَطَن المَنْكُود.

يَعْتَمدُ البَعْضُ منكُمْ في الدِّعَايَة ضدَّنَا أَنَّنَا مُتَطَرِّفُونَ مُتَهَوِّرُونَ نَطْلُبُ الاسْتقْلاَلَ. نَعَمْ نَطْلُبُهُ بكُلِّ شَرَف وَلَكن بالسَّعْي في سَبيله وَلَسْنَا نَطْلُبُهُ اليَوْمَ بَلْ نَقُولُ لَكُمْ أَنَّ بَرْنَامَجَنَا هُوَ السَّعْيُ لتَحْرير الجَزَائر بالوَسَائل المَشْرُوعَة وَلَمْ نُحَدّدْ لذَلكَ أَجَلاً بَلْ إنَّ الخَطَّ الَّذي نَسْلُكُهُ في جهَادنَا هُوَ خَطُّ التَّحْرير وَلَيْسَ خَطُّ الانْدمَاج وَالتَّجْنيس وَشَتَّانَ بَيْنَ السَّعْي وَبَيْنَ التَّنْفيذ. فَالأَيَّامُ وَقُوَّةُ الشَّعْب وَحْدَهُمَا كَفيلاَن بتَحْديد أَجَل التَّنْفيذ وَاللَّهُ منْ وَرَاء ذَلكَ مُحيطٌ. كَفَاكُمْ يَا دُعَاةَ الانْدمَاج وَالاضْمحْلاَل وَيَا أَعْدَاءَ الحُرِّيَّة وَالاسْتقْلاَل ! ...

حَسْبنَا أَنَّكُمْ مَهْمَا نَشطتُمْ في طَعْننَا وَتَفَنَّنْتُمْ في الدِّعَايَة ضدَّنَا وَتَغَالَيْتُمْ في تَصْويرنَا للْحُكُومَة وَأَمْعَنْتُمْ في إصْدَار قَوَانين «الانديجينا الأَهْليَّة» عَلَيْنَا، تَقْوَى حزْبُنَا وَانْتَشَرَتْ أَشعَّةُ دعَايَتنَا وَدَخَلَ النَّاسُ دينَ اللَّه أَفْوَاجاً ﴿وَالبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بإذْن رَبِّه



من اليسار إلى اليمين : عـ
(مفتي الديار الفلسطينية)
العراق بمصر).
(الأرشيف الخاص لعائلة

وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إلاَّ نَكداً ﴾[1] اطْعَنُوا فينَا وَقَاوِمُونَا وَارْتَكِبُوا الغَلَطَات السِّيَاسِيَّة دَائماً فَإنَّنَا سَوْفَ نَبْنِي صَرْحَ دعَايَتنَا عَلَى كَاهل غَلَطَاتكُمْ الفَادحَة الَّتِي هِيَ فِي آن وَاحد خِزْيٌ عَلَيكُم وَخدمَةٌ لَنَا وَسَيَنْبَلِجُ الصُّبحُ لذِي عَيْنَين وَستَنْدمُونَ يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ النَّدَم ﴿يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالمُ عَلَى يَدَيْه يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُول سَبيلاً يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أتَّخذْ فُلاَناً خَليلاً لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْر بَعْدَ إذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ للإنْسَان خَذُولاً﴾[1]

وَأَنْتَ أَيُّهَا الشَّعْبُ الجَزَائِري الكَرِيم ؛ أَيُّهَا الشَّبَابُ الوَطَني المُسْلمُ الصَّميم اعْتَمدْ عَلَى رَبِّكَ وَحْدَهُ. وَاتَّبِعْ الحِزْبَ الوَطَني وَجُنْدَهُ. وَمَحِّضْ ثقَتَكَ وَإخْلاَصكَ وَطَاعَتكَ لِزُعَمَائكَ الوَطَنيِّينَ الصَّريحينَ. وَلْيَكُنْ إمَامَكَ القُرْآنُ. وَرَائدَكَ الإيمَانُ وَثِقْ بِقَوْلِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴿وَكَانَ حَقاً عَلَيْنَا نَصْرُ المُؤْمنينَ﴾[2] فَسَيَأْتِي يَوْمٌ وَلَيْسَ بِبَعيد تُصْبِحُ فيه أَيُّهَا الشَّعْبُ الجَزَائِري المَاجدُ سَابحاً فِي سَمَاء الحُرِّيَّة حُراً طَلِيقاً بَاسمَ الثَّغْر وَضَّاحَ الجَبِين !

وَالسَّلاَمُ عَلَيكُم وَرَحمَةُ اللَّه.

من ابنك المخلص مصالي حاج
باريس يوم 12 نفامبر سنة 1936

1. الأعراف [7] الآية 58



من اليسار إلى اليمين : علال الفاسي، مصالي الحاج، أمين الحسيني (مفتي الديار الفلسطينية)، علي ماهر (رئيس حكومة مصر)، والجمالي (سفير العراق بمصر).
(الأرشيف الخاص لعائلة مصالي)

6

من داخل السجن

في قلعة بربروس

كان يوم 25 فبراير 1938 يوم انطلاق اعتقالات الفوج الثاني من مناضلي حزب الشعب الجزائري، وعلى الساعة العاشرة من هذا اليوم وجدنا أنفسنا نجتاز السياج الحديدي، لنضحى من سكان دار لقمان، ومن هذه النقطة الدائرية التي هي مركز الحراسة في سجن بربروس وقفنا ننتظر مصيرنا، وكان المساجين كلهم رجعوا إلى زنزاناتهم والصمت الرهيب يخيم على هذه القلعة ليزيد من هولها.

وهنا انتبهنا إلى إخواننا الذين سبقونا، قد بدأوا يطلون علينا من الطابق الثالث الذي كانوا يقيمون فيه، وعلى حين غفلة ظهر رئيس الحزب مصالي الحاج بقامته الفارعة، ولباسه الوطني، ولحيته الجديدة الذي زادته هيبة وجلالا، ونزل الطابقين - ونحن نتتبعه - في تؤدة وجلال. ووقف على يميننا على غفلة من الحراس وبلباقته المعهودة، أبلغنا التعاليم التي نسير عليها حول عملية الدخول. وقد سألنا عن سبب اعتقالنا ؟ وأين اعتقلنا ؟

وقد تعلل أمام إدارة السجن بأنه يطلب مقابلة المدير لأمور تخصه. وبعد أسبوع من هذا اليوم ألحقونا بالفوج الأول الذي مر عليه في السجن أكثر من ستة أشهر. وقد كانوا يتمتعون بالسجن

السياسي، أما نحن الأربعة، وقد بدأ عددنا يتزايد كل يوم حين وصلت جماعة قسنطينة وعنابة ثم العاصمة وبعدها تلمسان ثم فرنسا، فقد كان الحزب يبعث لنا بالأكل من الخارج قبل أن نصبح عددا وافيا.

مصالي واللغة العربية

كان حديثي الأول مع مصالي حول عدة قضايا حيث أننا لم نتقابل من آخر جويلية في السنة الماضية بمدينة وهران، وحتى هذه المقابلة لم تسمح لنا بالحديث الكافي حيث أننا التقينا مع الشيخ السعيد الزاهري ورفيقه الحاج القسنطيني، وكان الحديث يدور حول فتوى الشيخ الطيب العقبي لصالح المتجنسين التونسيين الذين رفضوا أن يدفنوا بالمقابر الإسلامية بتونس آنذاك.

لقد اشتكى لي - أثناء حديثنا - من الدروس العربية التي كان يتلقاها مع مفدي زكريا، والمبنية على القواعد النحوية، وقال لي هل هناك طريقة أخرى تساعدني بها، فرأسي عامر بالمشاكل، ولا يتحمل حفظ القواعد النحوية والصرفية، فطمأنته بأن طريقتي تعتمد على القراءة فقط. وهكذا بدأت أختار له القطع السهلة والمُشَكَّلة يقرأها عدة مرات بصوت مرتفع، ثم نحاول شرح الكلمات وبعدها شرح المعاني، ثم تقسيم النص، واعطاء عنوان لكل فكرة، وقد استساغ هذه الطريقة وأصبح يطالع وحده، وحين تطرقنا إلى كتابة تاريخ الحركة الوطنية، بادرني بقوله: «لقد طلب مني بعض الشخصيات حين كنت خارج السجن، أن أساعدهم على كتابة تاريخ الحركة. ولكن نظريتي أن التاريخ لا يكتب إلا من الداخل، ومن الذين عاشوا أحداثه عن كثب، ولهذا اخترتك لتقوم بهذه المهمة».

بدأنا فعلا في تسجيل حياة الحركة الوطنية في فرنسا، وتسجيل حياته الخاصة. وخرجت الأوراق من السجن، ولكن في تقلبات الحرب العالمية، ضاعت مني كغيرها من الوثائق والكتابات، كما ضاعت كتابات مصالي في السجن إذ جمعت وحفرها لها تحت الأرض ولكن المياه لم ترحمها، ومن الكتابات التي ضاعت رسالة طويلة تحت عنوان «نحن وجمعية العلماء» أملاها علي الأخ مصطفى بن رزوق في ثلاثة كراريس، يضم كل كراس مائة وستين صفحة، حكى فيها بكل تفصيل كيف كان يأمل أن تكون جمعية العلماء بجانب الوطنيين - أو على الأقل تبقى محايدة للمحافظة على الجمعية وتساعدها سرا، لأن غايتهما واحدة. ولكنها - للأسف - حاربت الفكرة الوطنية وأيدت الاندماج وزادت، فأرسلت الفضيل الورتلاني وجماعة معه من العلماء لمحاربة الفكرة الوطنية بفرنسا.

وقد تحالفوا مع الحزب الشيوعي الستاليني الذي كان في معركة مع الوطنيين، وهدد الورتلاني مصالي، وحاول الاعتداء عليه ولكن الطبقية - كما يقول «لاكوتير» أقوى من الإيديولوجية عند جمعية العلماء.

وفي أيامنا الأولى بجوار إخواننا الأوائل - الذين كانوا يتمتعون بالسجن السياسي - كنا نستدعي بالتناوب لمرافقتهم في الغذاء والعشاء، وكنت أنا أفضل العشاء لأن الوقت يكون أطول وهو من الرابعة إلى الثامنة، وأثناء الأكل أو بعده بقليل تبدأ الأحاديث الشيّقة والممتعة، بالتحاليل السياسية، وأخبار السجن وحراسه وممارساتهم المختلفة ثم تثنى بالذكريات والنكت وأخبار الكتب والكتاب، وتختم بالأغاني الشرقية والأندلسية والحوزية وربما ببعض الأغنيات الخفيفة الشعبية. وقد كان لمصالي الباع الطويل

في أسلوب الحديث، وسرد ذكرياته القديمة بتلمسان وتحليل ضاف للشخصيات المرموقة بأسلوب نقدي وساخر، كما كان يحدثنا عن العائلات الفرنسية التي كانت تؤويه حينما يكون متابعا من طرف الشرطة وكان يثني على هذه العائلات ويقدر لهم هذه المواقف الإنسانية. ومن هذه العائلات عائلة «لونقي»، من العائلات الباريسية الراقية أغلبهم محامون، وقد دافعوا عنه وعن الحركة.

مصالي... الإنسان والشاعر

أما عن الكتب والكتاب فكان يسرد الكتب التي طالعها وأعجب بها، فكان يتحدث عن تولستوي وموريس بوريس وهنري بوردو، كما كان كثير الإعجاب بأسلوب بالزاك القوي، وروح هيجو وسلاسة لا مارتين وميسى، وحكم فوفنا رف، ويستدل بشخصياتهم في أحاديثه ورسائله، وهكذا يمكنك أن تبقى مع مصالي الأشهر الطوال فلا تضيق بأحاديثه ولا تسأم من تتابعها، بل تتمنى أن لا ينقطع عن الحديث، ويختم أحاديثه أو نكته بضحكات قوية وعفوية تأتي من الأعماق وتعبر عن الصدق وعدم التعقيد.

وكان في آخر المطاف يستدرج الأخ بومدين معروف ليغني لنا بعض القطع الشرقية وكانت الأغنية المشهورة آنذاك : الشك يحي الغرام، ويزيد في نار ولهيب. والثانية : كم بعثنا مع النسيم سلاما، للحبيب الجميل حيث أقاما. وكان مصالي يتجاوب مع كل الأغاني بشكل مذهل وقد حكى لي الأخ معروف حادثة طريفة وكان يغني له هذه القطعة :

ضربتني بخنجر مقلتيها * تركتني مخضبا في دمائي
طرحتني على الطريق ثم قالت * من يصلي على قتيل الهوى؟

أجابه مصالي في حالة غيبوبة: تصلي عليه الملائكة يا أخ بومدين.

وكان يشارك الأخ معروف في الغناء الأندلسي والحوزي والعروبي وكان يغني بعض أغاني للشاعر بن قنون، وكان يحسن الضرب على السنيترة التي تعلمها في الصغر والناي الذي كان مولعا به في صغره، وكان فنانا مولعا بالموسيقى الشرقية والأندلسية كما كان ذواقا للموسيقى الغربية سواء الكلاسيكية أو العصرية ويتحفنا في بعض المرات بأغاني مضحكة للشعب الفرنسي يتندرون بها.

أما حين يطول بنا الوقت، وتبقى الفسحة للكلام والأحاديث والذكريات فيعود بنا إلى ذكرياته المحببة في الزاوية الدرقاوية، وعن الجماعة الذين عاش معهم تلك الفترة في محبة وإخاء ومودة وفي مجادلة شيقة حول التربية الدينية وحول التضامن بين الطبقة الفقيرة وإعانة بعضهم البعض ويثني عليهم كثيرا لأنهم ربوا جيلا من المؤمنين العاملين ويشبههم بالأحزاب العمالية في جدليتهم التي لا تغلب لأنها مبنية على قواعد ومبادئ لا يحيدون عنها. ويزيد فيقول بابتسامته المعهودة : إن الزاوية كانت مرحلة بين القبلية المتأخرة وبين النظام السياسي الجديد ولا يمكن الاستغناء عنها، إن الزاوية مبنية على المحبة : محبة الله ومحبة خلقه والفناء في محبته، وهذه الخصلة التي هي المحبة هي التي تنقصنا الآن وفي الأخير يعود بنا إلى بعض القصائد التي لا زال يحفظها فنترنم بها ونساعده نحن، بومدين معروف والمتحدث، لأننا مررنا بنفس الطريقة ولا زالت أشعار الفارض وسيدي ابي مدين والشيخ بن يلس في ألسنتنا نترنم بها ونقضي بها وقتا لا بأس به.



مصالي الحاج يخطب في فوفيو
(صورة من أرشيف عائلة مصالي)

7

صاحب اللحية الطويلة

بدأت سلسلة الاعتقالات الثانية يوم 25 فبراير 1938 كما مر بنا، باعتقال الكاتب العام بالنيابة الأخ أرزقي كحال الذي خلف مصالي في العاصمة بعد اعتقاله ومعه عبد الله فيلالي ولخضر حيواني والمتحدث. وكنا نظن أن الحملة انتهت ولكنها كانت فاتحة لسلسلة جديدة. ففي أول مارس اعتقل الإخوة فيلالي علي وجلول أحمد، وبوجريدة عمار في ڤالمة ثم محمد بالبرهان، وبومعزة علاوة، وعبد الكريم الطاهر بقسنطينة، وبالعاصمة أحمد مزغنة ومصطفى دشوك، وعبد القادر هرقة ومحمد العساكر، وبتلمسان عبد الكريم بن عصمان، وبفرنسا موساوي رابح وعمار بن دحمان، والسي الجيلاني، وهنا بدأنا نفكر كيف نوقف هذا السيل الجارف من الاعتقالات، وكنا نعرف أن قاضي التحقيق كان متشددا مع الجماعة الأولى، وحينما استدعانا قاضي التحقيق لاستجوابنا، أفضينا له بما اتفقنا عليه، أنا والأخ كمال أرزقي، وكان هو صاحب الفكرة. وبما أن المسألة تتعلق بالكتابة فلا بأس أن نأخذ المسؤولية. وهكذا ما إن وقفنا أمام قاضي التحقيق حتى بادره سي كمال بروحه المرحة، لقد اعتقلتنا نحن فإننا مسؤولين أما هؤلاء الذين يعتقلون كل يوم فما ذنبهم ؟ فقال لنا هل أنتم مستعدون لأخذ جميع

المسؤوليات، قلنا نعم. وعلى هذا فكل ما كتب بالفرنسية لسي كمال وما كتب بالعربية لمحمد قنانش. وهنا نظر إلينا نظرة تنم عن تقدير لموقفنا وقال لنا اكتبوا لي رسالة باسمكما وسجلوا أسماء الذين ليست لهم مسؤولية، وقد كتبنا الرسالة وبعثنا بها، وبعد أسابيع خرج بعض الذين طلبنا إطلاق سراحهم، منهم مزغنة أحمد ومصطفى دشوك، وحيواني لخضر وعبد القادر هرقة، وقد استفدنا من خروج هذه الجماعة للقيام بالنظام ولإعانتنا هنا كلما دعت الحاجة، وحصلنا أيضا على ثقة قاضي التحقيق. وهكذا فقد حاولت إدارة السجن أن تقوم بمناورة لمنعنا من السجن السياسي، وادعت أننا نستفز الحراس بالأناشيد الوطنية حين خروجنا إلى الساحة، وحين وصلت المسألة إلى قاضي التحقيق استدعانا وسألنا وقد أفضينا له بالحقيقة وهي أن الحارس الذي اشتكى منا كان يستفزنا دائما وكان ينتسب إلى حزب سياسي معاد لنا.

وفي يوم 15 مارس، وصلنا نعي والد مصالي، وكانت ضربة قاسية له ولنا، وحاول مع إدارة السجن، ومع الإدارة العامة أن يسمح له بتشييع جنازة والده، لأن السجن السياسي في فرنسا يسمح فيه حتى لحضور المسرح، ولكن الجزائر ليست فرنسا. وهكذا بقي مصالي يتخبط كالأسد في قفصه، ولأول مرة أراه يبكي من أعماقه.

ومن الغد 16 وصلنا نعي والد مُفدي زكريا، والمصائب لا تأتي فرادى. فكانت هذه الأوقات من أسوأ ما قاسيناه في السجن.

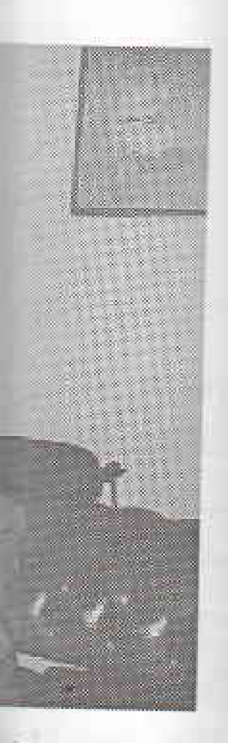
وبعد أيام من هذا التاريخ فرقونا، لأنهم ضاقوا بالمعتقلين الجدد، وقد كانت هناك أزمة بين الولاية العامة وإدارة المدينة حول من الذي يدفع مصاريف السجن السياسي، بعدما اعترفت محكمة النقض والإبرام بالحق بالسجن السياسي في الجزائر للفوج الأول. هكذا أخذوا الجماعة الأولى

المحكوم عليهم، إلى سجن الحراش أعادوهم إلى النظام العمومي، وبقينا نحن وكنا جماعة لا بأس بها ببربروس، وتأزمت الحالة مع إدارة السجن لأنه لم يعترف لنا بالسجن السياسي، ولهذا قررنا بعد أيام قليلة أن نقوم بإضراب عن الطعام. وهذا هو كل سلاحنا في هذه الظروف، وبدأنا بالاحتجاجات والكتابة إلى خارج السجن وإلى الإدارة العامة، وعينا تاريخ الإضراب، وذلك بالموافقة مع رفاقنا بالحراش، بواسطة المحامين، وجاء يوم الإضراب، وبعد 24 ساعة اعترف لنا جميعا بمبدأ السجن السياسي، ولم يسبق لمبدأ السجن السياسي أن يعرف في الجزائر، ولم يكن محددا، لأن تقاليده لم تكن معروفة. ثم هو حظوة وليس قانونا، وقد قبلنا بالمبدأ، وبدأنا نوسعه كلما سمحت الفرصة.

النقد الذاتي

يبدأ بالأكل من مطعم بالمدينة نختاره نحن، ثم الصحافة والكتب، والضوء وترك الأبواب مفتوحة إلى التاسعة مساء، وحرية الزيارات. ولكن في بربروس لم نستفد من الزيارات، لأنه لا توجد محلات خاصة للزيارة، أما في الحراش فكان لهم محل إقامة خاص، وكان معدا للأوروبيين فقط. وهكذا كانوا يستقبلون جميع الزوار الذين يقدمون أسماءهم سواء من العائلة أو من غيرها.

وأثناء أحاديثي مع مصالي، رغم قصر المدة التي قضيناها معا ببربروس تطرقنا كثيرا إلى حالة الحزب وتخوف الشعب من أفكارنا ومواقفنا وقد قال لي : «يجب أن نبدأ بنقد ذاتي لسلوكاتنا تجاه الشعب الجزائري وأن نحاول تفهمه وإقناعه، ولا يمكن أن نفرض عليه إرادتنا وأسلوبنا في العمل، فالشعب الجزائري يتأثر بالأشياء الدينية ولم يستسغ بعد الفكر العمالي والكفاح اليومي، وإني بصدد التفكير في توجيه جديد ودراسة جديدة للأوضاع الداخلية والدولية



المؤلف محمد فتـ

على السواء، ونحن الآن على حافة حرب عالمية جديدة تأكل الأخضر واليابس ولا مجال لنا إلا أن نكون في المستوى المطلوب، فالمخطط الجديد على وشك الانتهاء وأملنا أن نجد الرجال الأكفاء الذين يمكن أن نعتمد عليهم. فالسياسة تتطلب التجديد دائما وتتطور مع تطور الأحداث الدولية، ولا يمكن لنا أن نبقى منعزلين عما يجري في العالم». وهنا انتبهت إلى لحيته الطويلة التي زادته هيبة وسألته هل اللحية الطويلة داخلة في المخطط؟ فأجاب: «بلا شك».

وما إن أطل شهر سبتمبر من هذه السنة حتى وقعت أزمة دولية جعلت الحرب العالمية الثانية على الأبواب، وقد بدأت باحتلال ألمانيا للنمسا والتهديد لتشيكوسلوفاكيا، وكان الأسبوع الأخير من هذا الشهر ولا سيما في السجن من أخطر الأيام. ولا يمكن لك أن تتصل لا بالمحامي ولا بغيره. وقد تنفسنا الصعداء حينما سمعنا باتفاق «ميونيخ» من طرف فرنسا وانجلترا تحت تهديد هتلر.

في هذه الأيام كذلك مني الحزب - وأغلب المناضلين والقادة في السجون - بانحرافات خطيرة داخل الحزب بفرنسا كانت أهمها اتصالات جماعة باريس بالألمان ومحاولتهم المشاركة معهم، ومن لطف الله أن الإدارة الاستعمارية لم تكن على علم وإلا لكانت الكارثة، لقد كانت الحركة الوطنية الجزائرية دائما ضد الديكتاتورية وضد النازية بالخصوص وتصرفت هذه الجماعة بأسلوب لا يمت إلى الوطنية ولا إلى السياسة بصلة. وهذا ما حدا برئيس الحزب حينما اطلع على الحقيقة إلى إقصائهم خارج الحزب وإصدار جريدة البرلمان الجزائري من قاع سجن الحراش لتخلف جريدة الأمة بباريس التي أصبحت بأيدي المنحرفين.



المؤلف محمد فتانش ومحمد ديب في سان كلو - باريس - مارس 2000.



المؤلف محمد قنانش ومحمد ديب في سان كلو - باريس - مارس 2000.

8

لأنه ضد الفاشية ... كان ينعت بالشيوعي

وقد خرجنا نحن من السجن بعد محاكمتنا في أواخر جانفي 1939 وقضاء سنة كاملة ببربروس وقد استفدنا منها كثيرا وكانت لنا مدرسة اختبرنا فيها أنفسنا وخرجنا منها برصيد لا بأس به لمتابعة مسيرتنا الوطنية، وقد كتبت آنذاك في مذكراتي: الوطنية كتاب مقدمته السجن. أما الجماعة الأولى التي كانت بالحراش فقد أتموا السنتين وخرجوا يوم 27 أوت 1939 والحرب العالمية الثانية تدق الطبول.

وقد اغتنم مصالي الحاج فرصة إقلاع أول قطار مدني من العاصمة يوم 16 سبتمبر ليزور مسقط رأسه، ويزور قبر والده الذي لم يحظ بتشييع جنازته. وكان ذلك هو اليوم الأول الذي يصل فيه القطار - خاصا بالمدنيين - إلى تلمسان. وكانت المحطة تعج بالمنتظرين لذويهم وأبنائهم.

وما أن وصل القطار المحطة، حتى كان حاكم المدينة آنذاك «ليستراد كاربونل» ينتظر مصالي، وقد اتخذ مكتب مدير المحطة مقرا له، وبعث بعيونه لاستدعاء مصالي والجماعة التي كانت تنتظره من عائلته ومن معارفه، وكنت من بينهم.

وما إن دخل مصالي إلى المكتب والحاكم واقفا ينتظره، حتى قال «كاربونيل» بصلفه المعهود : «أيها السيد مصالي. لقد جئتم لزيارة

عائلتكم فلا أتعرض لكم، ولكن أنبهكم أننا في حرب، والحرب تستلزم الصمت. وقد مضى وقت الكلام والمطالبة... وقبل الآن كنت أغض الطرف عما يقوم به حزبكم، ولكن الآن يجب الصمت...»، وهنا قاطعه مصالي بقوله : «ليس من عادة ممثلي الإدارة أن يتدخلوا في الشؤون التي ليست من اختصاصهم، وأننا نعرف حدودنا وواجباتنا، وقد أخذنا مسؤولياتنا، فإن كنتم تريدون إدخال الخوف إلى نفوسنا أو تهديدنا، فقد أخطأتم الطريق. فافعلوا واجبكم كما أننا نفعل واجبنا وكفى... قالها بغيظ».

وحاول «ليستراد»، أن يهدئ من روع مصالي، ولكنه خرج وخرجنا معه، ولم يلتفت إليه.

وطوال الأيام القليلة التي قضاها مصالي بتلمسان كان الحاكم «ليستراد» يأتي بنفسه إلى الساحات العامة حينما يكون مصالي يتجول مع معارفه وأصدقائه ليستمع إلى ما يقول، ولتخويف الناس ليبتعدوا عنه. وقد لفق بواسطة واحد من عيونه كلاما ملفقا حوكم عليه مصالي سنة 1941، بستة عشر شهراً سجنا مع الأشغال الشاقة.

أثناء جولاته في الساحة العمومية تقابل مرة مع المعلم بن سالم بن قلفاط وذكره بدفاعه عن عصبة الأمم في اجتماع «أحباب السلم» بتلمسان سنة 1936، وانتقاده لمصالي الذي قال أن عصبة الأمم لم تخلق للسلم، فأجابه: «كنت أومن بما قلت ولكن...»

رافقته مرة عند الحلاق بساحة المدرسة، وخرجت لأنظر إذا كان وراءنا حراس، فالتقيت بالمحامي الكبير الأستاذ بنعلي الفخار الذي كان يكتب في جريدة أخيه التي كانت تصدر بوهران وقد مثل دورا لا بأس به في نهضة الشبيبة الجزائرية، وكنت أقابله دائما وأتسلى بأحاديثه السخرية، وسألني : «ماذا تفعل في هذه السوق» ؟ فأجبته بأنني أنتظر مصالي، إنه عند الحلاق الذي أمامنا، فقال لي : «أريد أن

أراه وأحييه فهذه مدة طويلة لم نتقابل». ودخل وبأسلوبه الساخر المعروف عنه وقال له: «إنك تتزين لتصبح صغيرا وشابا، فأجابه مصالي بأن المثل يقول: «من فاتك بزين، فوتو بتحسينه»، يعني تحليقه. وتبادلا الذكريات والنكت وكان مصالي يضحك من أعماقه كعادته.

وحول تقدم الألمان في أوروبا، والوسائل التي كان يستعملها، سأل مصالي أحد المناضلين بقوله: «إن الألمان سينتصرون على الحلفاء». فأجابه بأن ألمانيا لا تربح الحرب، فليست القوة هي التي تأتي بالنصر، بل السياسة والديبلوماسية. وأنجلترا أقوى منه وأدهى، فلا تغتر بالظواهر. فالنصر للحلفاء.

وقد كانت مواقف مصالي ضد النازية والفاشية لا جدال فيها، فقد شارك في مظاهرات 12 فبراير 1934 ضد الديكتاتورية في فرنسا وشارك في تأسيس التجمع الشعبي الذي أصبح سنة 1936 الجبهة الشعبية، وكان عضوا في رئاسة لجنة «امستردام بلييل» «ضد الفاشية»، وأخذ الكلمة أمام «عصبة الأمم» بجنيف ضد السطو الإيطالي على الحبشة، وكانت مواقفه دائما ضد الديكتاتورية سواء كانت من اليمين أو حتى من اليسار، وهكذا كان ينعت بالشيوعية وبالستالينية، وكان الشيوعيين يضيقون بهذه التسمية، أما النازية فله معها معارك، فلقد وصله وهو في سجن الحراش آخر 1938 بأن جماعة من مسؤولي الحزب في باريس وفي العاصمة اتصلوا بألمانيا وحاولوا جر الحزب معهم، وبعثوا له بمن يستميله إليهم، ولكنه وقف منهم موقفا حازما. فقد طلب منهم الابتعاد عن الحزب وعن المناضلين، وأوقف المغامرة في حينها، وإلا كانت تؤدي بالحزب إلى ما لا تحمد عقباه.

بين مصالي والإبراهيمي

وبعد أسبوع من وصول مصالي إلى تلمسان، سمع بزيارة الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى تلمسان فكلفني بالبحث عنه، ولكن وجدته قد رجع

في حينه، ثم طلب مني أن أتصل بالشيخ الإبراهيمي وأحدد له موعدا معه في سرية. وهكذا تقابلا ليلا، أين كان يقيم مصالي. وحضرت المقابلة. فبعد التحية بدأ مصالي الحديث هكذا: «أيها الشيخ إننا في حرب لا نجاة لنا فيها، وشبابنا يساق إلى الموت، ويضحي من أجل قضية لا يجني منها إلا الاستعباد وقد مضى وقت الانتظار، فما هو موقفكم الآن» ؟

وهنا أخذ الشيخ الإبراهيمي الكلمة ليقول بامتعاض: «إن هذا الشعب لا يستحق الحياة، وقد حاولت إصلاحه بكل الوسائل فلم أفلح، وهذه الشبيبة الموجودة الآن خير لها أن تموت في سبيل فرنسا من أن تبقى على الحالة التي عليها الآن...» وقد باغتنا بهذه النظرة القاتمة.

ثم تطرق إلى سرد حياته في المشرق وخصوصا في القدس حين كان صديقا «لويزمان»، وكان يعيش عنده. وبعد رجوعه من المشرق تعرف على «ليستراد كاربونيل» الذي كان مستر أتور بناحية سطيف وهو الآن الحاكم الأعلى بمدينة تلمسان.

طال الحديث في الحكايات، وانفضت المقابلة في برودة، ومن غير نتيجة، وقد ظهر على مصالي القلق، وكاد أن ينفجر...

وحين صاحبت الشيخ إلى منزله، اغتاظ مني وقال لي: «حذار أن توقعني مرة أخرى في مثل هذا المأزق»، ومن يومها أصبح يتحذر مني.

رجع مصالي إلى العاصمة في اليوم الأخير من شهر سبتمبر، وفي أول أكتوبر بدأ التفتيش عند المنتسبين إلى حزب الشعب، وفي 4 أكتوبر بدأت الاعتقالات، وقد ضمت عددا من المناضلين والمسؤولين في كامل أنحاء القطر الجزائر، وكان مصالي في طليعة القائمة.

9

مع الزعيم مصالي الحاج، من برازفيل إلى بوزريعة

في مساء يوم 21 أكتوبر 1946 تلقيت خبرا من مدينة غليزان بأن الزعيم مصالي الحاج قد نزل على حين غفلة قريبا من مدينة غليزان، وقد قضى الليل في ضيافة أحد أقربائنا وهو السيد عبد الحميد بخشي، وفي الغد انتقل إلى بوزريعة، نواحي العاصمة، أين عين موضع إقامته الإجباري، وقد منع عليه دخول المدن الكبيرة تنفيذا لمحاكمة فيشي سنة 1941.

لقد رافقه في طريقه الدكتور الأمين دباغين والأخ الحسين الأحول واستقبل أثناء مروره بحفاوة لا مثيل لها من طرف الجماهير الشعبية، ولم يصل إلى محل إقامته إلا بعد لأي وتعب.

وللتذكير، فإن مصالي الحاج قد أبعد إلى «عين صالح» ثم إلى «برازفيل» بعد مظاهرات «العشابة» بقصر الشلالة (أفريل 1945) أين كانت إقامته الإجبارية، نتيجة لحالة الحرب. وبعدما صدر قانون 10 ماي 1946 المنهي لحالة الحرب، أصبح فرض الإقامة الإجبارية على مصالي غير قانوني، ويستدعي قرارا جديدا لتغطية المخالفة، وهكذا في يوم 20 جوان 1946، بعد

مرور ثلاث سنوات من خروجه من سجن «لامبيز» تذكرت الإدارة أن مصالي قد حكم عليه بالأشغال الشاقة، ويمنعه من الدخول إلى المدن الكبيرة، وقد أعلم في «باماكو» بقرار اتخذه عامل عمالة قسنطينة يمنعه من الدخول إلى عدة مدن تحت حكمه. ثم أن حكومة «برازفيل» طلبت منه أن يختار لإقامته في فرنسا أو الجزائر، مدينة صغيرة لأن المدن الكبيرة غير مسموح له بالإقامة فيها.

وفي آخر جوان أخبر بأنه حر وبأن الحكومة قد جعلت لنقله شاحنة، وقد اختارت - إكراما له - أن تتجول به في الغابات الموحشة التي ذاق مرارتها ليحتفظ في ذاكرته بما قساه أثناء تنقلاته التعسفية، وقد دام هذا التجوال ما يقرب من شهرين قطع أثناءها 2500 كيلومتر من غير أمتعة وغير رفيق إلى أن أودع أخيرا بمدينة دكار في طائرة أقلته إلى باريس.

وبعدما قضى أياما بفرنسا عزم على الدخول إلى الجزائر عن طريق مرسيليا فاعتقل في المطار، واقتيد إلى عمالة الشرطة أين أخذ في طائرة صغيرة أنزلته بقرب مدينة غليزان، لأن المدن الكبيرة التي تنزل بها الطائرة غير مسموح بها.

وحينما نزل باريس أحتجز من طرف الجماعة القديمة للحزب بقيادة راجف بلقاسم، وحالوا بينه وبين الاتصال بالشخصيات التي كانت تود زيارته والاتصال به، ومنهم نواب حزب البيان الذين شاركوا في الجمعية التأسيسية الثانية بالمجلس الفرنسي، وكانوا يودون الاحتفال به والتحدث معه.

وكان من المأمول أن يعود مصالي إلى الجزائر كزعيم شعب لا كرئيس حزب، ولم يكن مما يخطر في البال أن يستقبله في باريس عند رجوعه من المنفى، من أقصاه هو وجماعته من الحزب لانحرافه والمخاطرة بمبادئ حزب الشعب، ولا أن يستقبله في الجزائر من تسبب في نفيه إلى «برازافيل» في أحداث 8 ماي 1945، ولكن في الجزائر يصعد صاحب الأخطاء الكثيرة لأن المحاسبة مفقودة.

وفي اليوم الثاني من وصوله، أخذت القطار الليلي، ووصلت إلى العاصمة صباحا، وفي القطار بدأت أتخيل أنواع الاحتفالات التي ستقام بهذه المناسبة الفريدة والقصائد والكلمات التي ستلقى سيما وأننا خرجنا من حرب ضروس أتت على الأخضر واليابس.

وحين حاولنا أن نعبر عن فرحتنا بنهاية الحرب، بلينا بمؤامرة استعمارية جديدة وهي أحداث 8 ماي 1945.

وفي القطار بدأت أترنم بأبيات وجدت بعضها في أوراقي التي نفضت عنها الغبار، وكانت نفحة مفدي زكريا فيها ظاهرة، فهو في هذه المناسبات لا يشق له غبار.

قُمْ فوقَ هامِ السُّهى، وارْفَع بإجلالِ
تَحيةً لزَعيمِ المَوطِنِ الغالي
وغنِّ للمجدِ ألحاناً مجددة
ملائك الخلد تتلوها لآجال

وحـي شـعـبا أقام للعلا صـــرحا
متينة لم تزل من عصرها الخــالي
واهنأ بيـوم كـــأن الـدهر غـرتـه
قد اكتسى حُللا من نسجها الغالي
خمسون عاما مضت في نشر ألوية
للحق والعـدل في تحطيـم أغـلال

وكنت أنوي متابعة هذه الأبيات بعد وصولي إلى العاصمة، وتأثري بالجو الذي يمكن أن يساعدني على الإتيان بما توحيه مثل هذه المناسبات.

وما إن وصلت بعد الظهر إلى بوزريعة، وكلي نشاط وأمل حتى صدمت بما هو بعيد عما كنت أتصوره أو أحلم به، فلا حفلات تقام، ولا شخصية معروفة تستقبل الزوار، وقد أقيم حرس بشبان لا يعرفون شيئا عن قواعد الاستقبال، يسجلون اسمك كأنك داخل إلى مخفر الشرطة، والمسؤولون - أو من يعتبرون أنفسهم مسؤولين - يدخلون ويخرجون في طيش ولا مبالاة، كأنهم يفتشون عن شيء ضاع منهم، وباختصار كانت اللامبالاة والارتجال ضاربة أطنابها.

ناداني مصالي، أجبت النداء

كانت المحادثات قد بدأت بين الأحزاب حول الانتخابات المقبلة وقد وصل السيد فرحات عباس رئيس حزب البيان في هذه الآونة ليتحدث مع الزعيم فأجلسوه مع المنتظرين، وقد

حييته وخرجت لأنبه الجماعة بأنه جاء لمهمة سياسية، ومن الواجب أن يدخل على الفور.

ثم وصل بعد هذا بقليل وفد المعلمين الأحرار للجزائر الكبرى وهم ينتمون إلى جمعية العلماء، وكان على رأسهم الأستاذ المرحوم فرحات الدراجي، وقد ألقى خطابا قيما - بالنيابة عن جميع المعلمين - فنوه بموقف مصالي يوم 2 أوت 1936، حين نادى باستقلال الجزائر، وقال بالخصوص: «سيبقى موقفك هذا غُرّة في تاريخ الجزائر»، وبعد ما هنأه على رجوعه إلى وطنه، تمنى له الصحة والعافية ليحقق حلم الجزائر، وأعلن بأن المدارس الحرة قررت إطلاق سراح التلاميذ في هذا اليوم احتفاء برجوعكم، وتقديرا لمواقفكم وتضحياتكم، وكان صوت الأستاذ الدراجي يسمع من بعيد، وكنت أتمنى تسجيل مثل هذه الكلمات ولكن المسجلات لم تكن معروفة آنذاك، والكتابة لم تكن على موعد معها. بعد خروجهم دخلت لزيارة الزعيم، وبعد التحية وتبادل بعض الكلمات حييت الأخ عمر خليل الذي كان عن يمينه، والأخ عبد الله فيلالي عن يساره، وتحققت من بعد بكثير. إنهم كانوا يمثلون الأمين دباغين، والذي قد كان في هذه الفترة صاحب الأمر والنهي، وعرفت أخيرا أن الأمين كان يضيق بمصالي ويعتبر أن أوانه قد فات، سيما وأنه عندما قابله عاتبه بقوله على ذكر أحداث ماي 45: «هكذا أوقعت الجزائر في كارثة بسبب تعنتك وتطرفك»، وقد أجابه بصلفه المعهود بأن هذه

هي الطريقة الوحيدة للثورة.

وقد وجدت مصالي تغير وقد ظهر عليه التعب وتحمل المشاق وبدأت السنون تؤثر فيه وتأثرت بمرآه، وأحسست بأني ودعت مصالي منذ تسع سنين حينما كان يتقد نشاطا وحماسا ويبعث القوة والطموح لكل من يقابله، وعلى كل فهذه نظرة أولى، وربما يستعيد صحته ونشاطه.

وفي آخر العشية وصل وفد الكشافة الإسلامية الجزائرية، فاستقبلوا في ساحة المنزل لأنهم كانوا عددا لا بأس به. وكانت شمس الأصيل تحاول الهروب إلى مستقرها، وكان المنظر الطبيعي مؤثرا، وجنود الكشافة بلباسهم الأنيق وروحهم المتوثبة، ووقفة الزعيم في وسطهم بقامته الفارعة ولحيته الطويلة قد أضفى على هذا الحفل مشهدا رائعا غير الجو الذي كان سائدا وقد حيوا الزعيم بنشيد جديد، كان ابن المناسبة وارتفعت أصواتهم بـ :

ناداني مصالي، أجبت النداء

فروحي ومالي وعرضي الفداء

وكانت حقيقة، هنيهة تعدل سنوات العمر وتبعث على التفاؤل والطموح، وقد قدموا له هدية رمزية تحمل علما صغيرا للكشافة مطروزا بالذهب ومصحفا، كما قدم لهم من ناحيته مصحفا صغيرا كان يحتفظ به، وركز في حديثه معهم على دورهم المنوط بهم في مستقبل البلاد، كما حثهم على الاهتمام بدراسة القرآن وتفهمه والتخلق بمزاياه، وقبل توديعهم أخبرهم بأن حزب الشعب

سيشارك في الانتخابات المقبلة. وودعهم مع توديع الشمس للأفق، وقد خرجت على أثرهم، منتشيا برؤية شبابنا الطامح يتأهب لخوض غمار معركة المستقبل بإيمان وثقة، ونزلت إلى المدينة أين قضيت ليلتي مزهوا بمنظر الكشافة وطموحهم، وقد قضيت الليلة كلها وأنا أحلم وأتكهن بما يخبئه لنا مستقبل ما بعد الحرب العالمية الثانية التي ذقنا منها الأمرين.

10

الانتخابات التشريعية 1946

كانت العاصمة الجزائرية، - آنذاك - محط أنظار المناضلين الذين طال عليهم الأمد، وهم ينفذون الأوامر من غير المشاركة في الإدلاء بآرائهم فيها - لسرية الحركة، وظروف الحرب - وبالاتصال بالزعيم الذي كان أغلبهم لا يعرفه، وكان همهم الوحيد أن يروا الظروف الجديدة تتمخض عن مؤتمرات ودراسات وتقييمات عن الحرب العالمية الثانية، وما ترتب عنها من تغيير على الساحة الدولية واتجاهاتها المعلنة، وعن أحداث ماي 1945 وأسبابها وما نتج عنها، وعن تحليل جديد محدد ومفصل للمسيرة الجديدة نحو المستقبل. كما كانت العاصمة بالطبع محط أنظار السياسيين القدماء، وتجار الانتخابات، والمثقفين الجدد الذين أصبحوا يأملون أن يكون لهم دور في السياسة الجزائرية، يخولهم مكانة تليق بهم، وترفع من شأنهم. كما أن بعض الطلبة الذين رجعوا من أوروبا، وتعرفوا على تجربة الاحتلال الألماني وتوابعه، وبعضهم شارك في المقاومة الفرنسية ضد النازية، وبدأوا الاحتكاك من جديد مع الشارع الجزائري وحل بعض الألغاز التي كانوا في حاجة إلى فك رموزها.

مع محمد الشريف الساحلي

كانت المقاهي الأنيقة والمطابخ الرفيعة التي كانت بحوزة بعض المناضلين القدماء منهم مفدي زكريا والمحامي أحمد بومنجل ورشيد وعمارة ومحمد داقي وحفيز. كانت هذه المحلات مركز للمحادثات والنشاطات السياسية والفكرية.

وفي هذا الإطار تعرفت على الأستاذ محمد الشريف الساحلي، أستاذ الفلسفة بباريس واستغربت هندامه البسيط الذي كان ينم على أنه من عمال فرنسا المغتربين، وكنت أعرفه بالسماع. وقد اطلعت على مجلته إفريقيا التي أصدرها بباريس سنة 1939، ونشر منها ثلاثة أعداد، وتوجد الآن بالمكتبة الوطنية الجزائرية، وكانت متأثرة بالنزعة النازية.

والغريب أن جل الطلبة في أوروبا كانوا يعطفون على النازية، ويرون فيها حلا وطنيا. وقد شارك هو أثناء الحرب مع النازيين، وكان من مسؤولي «carna» المنظمة النازية الخاصة بالشمال الإفريقي، كما حدثنا عما قام به في صف المقاومة الفرنسية (FFI) وكان صديقا حميما «لأندري مارتي» الذي بدأ يفقد وزنه كمسؤول في الحزب الشيوعي الفرنسي.

وقد صدر لساحلي أخيرا كتاب رسالة يوغرطة* وكان موضع تعاليق مختلفة، وقد اطلعت عليه وأعجبت به، وبتركيزه على مقومات الوطنية الجزائرية، وحين سألت مسؤولي الحزب عن نظريتهم للكتاب. أجابوني بأنه يحتوي على نزعة بربرية.

---

* **ملاحظة الناشر** : لمحمد الشريف ساحلي العديد من المؤلفات أهمها ما ترجمناه نحن في دار القصبة إلى اللغة العربية: تخليص التاريخ من الاستعمار سنة 2002 والأمير عبد القادر، أباطيل فرنسية وحقائق جزائرية.

وممن تعرفت عليهم في هذه الأثناء الدكتور خالدي الذي كان طالبا بمدينة «مونبيليي»، وكان ككل الطلبة الذين كانوا معه متأثرين بشخصية عربية عراقية اسمه «محي الدين» وهو عراقي وينتمي إلى جماعة الإخوان المسلمين. وتعرفت منهم بعده على الطلبة محمد الصغير النقاش، وعبد الكريم جباري، ومحمد الطبال، وجميل بنديمراد وغيرهم والذين لم يكونوا يفرقوا بين الوطنية كحركة سياسية تستمد جذورها من الأرض وتعتمد على النظام والتوعية، وبين حركة الإخوان التي هي نوع جديد من الطرق الدينية القديمة، لا تعتني بالسياسة التي هي لب الوطنية. وتنظر إلى إعادة الماضي من غير تحليله ولا تخطيط للمستقبل.

وفي اليوم الثالث - بعد قرار أحباب البيان والحرية للأستاذ فرحات عباس عن عدم ترشيحه - ظهرت قائمة حركة الانتصار للحريات الديمقراطية. وقد قدم الحزب عدة قوائم بأسماء مختلفة وعناوين متباينة، ولم تقبل إلا قائمة حركة الانتصار. هكذا أصبح هذا العنوان هو التغطية الرسمية لحزب الشعب السري - على أن مبدأ الانتخابات كان صدمة بالنسبة إلى المناضلين الذين لم يستسيغوا المشاركة في الانتخابات، ولم يرتاحوا للارتجال في اختيار المرشحين.

وظهرت التناقضات بين من رسموا أنفسهم مسؤولين، ولم يعد حزب الشعب رمز يخفي وراءه تلك القدرة التي كانت ترهب الإدارة وتخيف الخصوم.

أما بالنسبة إلى الإدارة الجزائرية فقد اتضح لديها ما كان غامضا، وارتاحت لظهور ما كان مختفيا على المسرح. وقد

التقيت في طريقي هذا المساء أحد معارفي الذين كنت أرغب دائما في الإطلاع على آرائهم وملاحظاتهم، وقد أفادني بأنه تقابل في طريقه الآن بمسؤول من الولاية العامة، وقد اخبره بأن الإدارة قد ارتاحت بعد ظهور قائمة الوطنيين، لأنها كانت بالنسبة إليهم لغز يصعب اكتشاف ما وراءه، أما الآن فاللغز أصبح واضحا، ولا يحتاج إلى كبير عناء.

وبعد أيام قلائل بدأت الحملة الانتخابية واخترت مدينة «مستغانم» لتدشين هذه الحملة. وعلى العاشرة من هذا اليوم أقيم تجمع شعبي برئاسة الدكتور بومدين بن سماعين، تكلم فيه الحسين الأحول الذي كان رئيس القائمة المرشحة ثم تلاه الزعيم مصالي الحاج - وعلى الثانية عشرة أقيم تجمع شعبي ثاني بالسانية خارج مدينة وهران - لأن مصالي الحاج ممنوع عليه دخول المدن الجزائرية الكبرى.

وقد خرجت من تلمسان لاستقبالهم بعين تموشنت صحبة جلال بوجاقجي في سيارته وذهبنا إلى «العامرية» وهناك التقينا بالفوج ورجعنا معهم في الرابعة إلى عين تموشنت وقد كان الغذاء في انتظارهم عند التاجر البشير بوعياد وانتقلوا بعدها إلى دار السيد بريكي أين أقيم المهرجان وبعدها رأسا إلى مدينة تلمسان. قبل دخول المدينة استقبل الوفد المحامي الكبير ونائب شيخ المدينة الأستاذ عمر بوقلي حسن، وكان نادي الشبيبة الجزائرية قد هيأ حفلة شاي للزعيم وجماعته ولكن الوقت لم يكن كافيا، ولهذا فقد ذهب الفوج رأسا إلى الملعب البلدي وكانت الطرق الموصلة إلى الملعب البلدي أين يقام المهرجان مكتظة بالجماهير ولم أتمكن من الدخول إلا بشق الأنفس وكان علي أن

أفتتح الجلسة وأقدم الخطباء، وبعد كلمتي المختصرة تقدم المحامي عمر بوقلي حسن كممثل للمدينة وكصديق للزعيم فصال وجال وبعده قام الحسين الأحول كمرشح في الناحية. وفي الأخير قام ابن تلمسان مصالي الحاج فألقى خطابا عاطفيا حول اشتياقه إلى مدينته الخلابة وتاريخها، وذكرياته فيها، وختم بنداء إلى الالتفاف حول الحركة الوطنية. وكان مصالي وجماعته مدعوون إلى العشاء عند المحامي عمر بوقلي حسن، وفي الصباح أعلنت الجرائد بأن قائمة العمالة الوهرانية وسطيف لحركة الانتصار قد منعتا من المشاركة في الانتخابات. وكانت القائمة تضم الأحول حسين وممشاوي محمد والسويح الهواري وتعطلت السيارة ولم تصلح إلا بعد الظهر وتعطل الوصول إلى سيدي بلعباس في الصباح وسعيدة في المساء. ومرت الانتخابات في جو التعطيلات وفاز خمسة نواب من 15 مترشحا.

ثم زار مصالي تلمسان في صيف 1947 ليستريح مع عائلته، وقد ذهبنا لاستقباله في الطريق، وبقي أياما وزارته الكشافة الذين اجتمعوا في غابة تلمسان وأخذوا صورا معه، وفي هذه الأثناء زار الجزائر صحافي من السويد هو وامرأته وهي أيضا صحفية وقد تعرفوا على الأخ مصطفى فروخي وهو الذي بعثهم عندي وقد تجولت معهم وتحدثنا طويلا وزاروا مصالي وجماعة الكشافة وكان السؤال الذي يشغلهم ولم يجدوا له جوابا وقد زاروا العالم بأسره ولم يجدوا هذه الظاهرة إلا في الجزائر وهي لماذا الرجال في الجزائر يبقون قاعدين طول النهار من غير أن يتزحزحوا ولا يحركوا ساكنا وقد كانت الأجوبة مختلفة ويظهر لي أنها لم تقنعهم.

ورجع مصالي مع عائلته مرة أخرى في صيف 1948 وحضر اجتماع الطلبة في منزلي بحضور الصحفية الانجليزية آن، وكان رئيس الجلسة الدكتور شوقي مصطفاوي وقد أجاب جميع الطلبة الذين قدموا أسئلة، وتكلم بإسهاب عن الموقف الوطني. وفي الأخير تكلم مصالي كعادته وصال وجال وكانت أمسية ممتعة مع الطلبة رجال الغد.

11

آخر زيارة لي لمصالي

انتقلت إلى العاصمة في صيف 1950، وذهبت رأسا إلى بوزريعة لأزور الزعيم مصالي الحاج. وأستطلع أخباره، وقد هالني أن أجد الدار فارغة إلا منه، ومن أحد المعارف الذي جاء ليأخذه معه إلى البحر لأنه كان بحاجة إلى الراحة والاستجمام.

وما إن سلمت عليه حتى طلب مني أن أرافقه إلى البحر، وكانت بالنسبة إلى فرصة لا تعوض في حرارة الصيف. ووصلنا إلى شاطئ «جميلة» وذهبنا بعيدا عن الناس، ونزلنا على الشاطئ وكان الجو منعشا، ودخل هو الأول وبدأ يسبح بشوق لا مثيل له، وتمتع بروائع البحر، وكان يحسن السباحة من صغره، وقد رأيته قبل هذا في تلمسان بـ «الوريط». وقد ذكرني بقفزته من أعلى الجبل على المسبح حتى أن حراسه الذين كانوا لا يفارقونه ارتاعوا لقفزته، وقد كانت بصحبتنا آنذاك صحفية انجليزية راعها ما رأته منه، وقبل أن أنزل إلى الماء وقفت أتمتع برؤيته وهو يسبح بذوق ولحيته الطويلة تزيده جلالا وهيبة. وما أن اقتربت منه حتى بادرني بقوله : يظهر أنك بعيد عن النظام ؟ فأجبته كعادتي معه بكل بساطة، ذلك أنني لست من أحباب

الجمهورية Les amis de la république. فقال لي ماذا تعني هذه الكلمة، فقلت له لست من جماعة الدوزيام ؟ هذه المافيا التي استحوذت على الحزب وجعلت منه آلة لصالحها. ولا عجب فالقصبة أو «الدوزيام» كما تدعي الآن ما زالت تضم مجموعات من الإرهابيين لا تسمح بالنقد أو المعارضة. وهنا طلب مني أن أبقى معه هذا المساء لنتحدث معا. وحين رجعنا إلى المنزل أخذ يفتش عن أشياء يمكن أن نتقوت بها فلم يجد إلاّ حبتين من الخردل هيأهما كسلاطة تعشينا بها.

مصالي : من زعيم حزب إلى زعيم أمة ؟

لقد وجدته متذمرا من إدارة الحزب، وحكى لي أن أصحاب الإدارة حين يأتون للاجتماع يصحبون معهم مسدساتهم ويجعلونها فوق الطاولة أمامي وأنا الوحيد الذي لا أملك مسدسا، وهذا تهديدا سافر ضدي وقد فرقوا بيني وبين عائلتي فأبنائي وزوجتي بعيدين عني وقد هددوهم ولذا فقد رجعوا إلى بيتنا القديم في القصبة وابعدوا عني كل أحبابي وبقيت وحيدا لا أجد ما أقتات به. فقلت له بأنك مسؤول عن هذه الحالة، لقد تركتهم يعبثون. فقال لي هذا الذي يقولونه لي كل الذين يزورونني. وهنا بادرته بقولي: «لا أخفي عليك. لقد كنت أتمنى حين رجعت من برازافيل أن تأخذ قسطا من الراحة - بعيدا عن المسؤولية وعن الحزب - حتع تطلع على ما مر في غيابك من أخطاء ومن خروج عن الجادة، سيما وقد أصبحت زعيم أمة لا زعيم حزب. وتسمع إلى المناضلين القدماء الذين أصبحوا على الهامش وإلى الشعب الذي كان ينتظرك بفارغ الصبر. ثم تدرس السياسة الدولية وما تتطلبه من تغيير ومن تفهم للمعارك

الآتية، وهناك تبني معركتك الجديدة على أسس متينة، وعلى الكفاءة لا على حركية وارتجال لا يمت إلى السياسة بصلة. وحينما زرت تلمسان للمرة الأولى سنة 1946 وطلبت من الناس أن ينتخبوا على قائمة الحزب، سألت بعض الأصدقاء الذين كنت أثق بهم ما رأيهم؟ فقال لي أحدهم، لقد كنا ننتظر مصالي أن يأتي إلينا ويحكي لنا أحواله وأحلامه ويستمع إلينا وإلى هذا الشعب، الذي هو في حاجة إلى من يستمع إليه ولكنه للأسف - جاءنا كالآخرين ليقول لنا انتخبوا على قائمتي. حقيقة لقد أحسست بإحباط لا مثيل له». وهنا ظهر عليه التأثر والانقباض وقال لي: «حين وصلت في جولتي الأولى إلى مدينة في الشرق الجزائري طلب الكلمة شيخ من القاعدة وقال: «يا سيدي الحاج لقد كنا ننتظر زيارتك بفارغ صبر وكنا نتمنى أن تحدثنا على حالتك وعن آلامك وآمالك وتستمع إلينا وتطلع على حالتنا ولكن للأسف جئتنا لتقول لنا انتخبوا على قائمتي، وهذه الكلمة أثرت في تأثيرا شديدا ورجعت من هناك متأسفا وبقيت أنفذ مقترحات الآخرين، لأنني رجعت مشتاقا للحركة والعمل، وكنت أظن أن الحركة سارية كما كانت من قبل». وقد عقبت عليه بما يلي: «الحقيقة المرة التي نتجرع مرارتها هي أنه نتج عن تزييف انتخابات المجلس الجزائري بواسطة «نايجلين» تغيير جذري وتزييف في اتجاه حركة الانتصار. وقد تغير الرمز الأساسي وأصبحت الستالينية تتحكم في الحزب بواسطة النظام المركزي الذي كان مؤامرة ضد الديمقراطية داخل الحزب وأصبح المناضل لا حق له في إبداء رأيه. بل يفرض عليه ما تريده الطغمة الحاكمة وقد بدأ النظام الجديد باقصاء الامين دباغين وجماعته، وخلق أزمة بربرية مفتعلة يغذيها الحزب الشيوعي، وإقصاء المناضلين القدماء بدوافع

مختلفة وتفجير المنظمة السرية بواسطة سلوكات إرهابية وصبيانية».

من دباغين إلى الأزمة البربرية

وعلى ذكر إقصاء الدكتور الأمين الدباغين، قلت له : «إن الأسباب التي قدمها الحزب لإقصائه غير كافية ولا مقنعة...» وقد أجابني: «حقيقة، ولكن هناك أشياء أخرى لم تذكر لأسباب خاصة - الأولى عدم انظباطه مع الحزب، فإنه يسافر إلى الخارج من غير علم الإدارة، وحين يرجع لا يقدم تقريرا لا كتابيا ولا شفهيا، وكانت تصرفاته مع المناضلين ومع الخصوم أو مع المحبين تتسم بالبعد عن اللياقة السياسية. وكان معقدا حينما يرى من هم أقل منه منزلة يتحدثون بطلاقة وباتزان فكان لا يملك نفسه حينما يعجز عن شرح ما يختلج في صدره، وأشياء أخرى ثم هو الوحيد الذي لا يدفع ما يتقاضاه من المجلس الفرنسي للحزب كغيره من النواب.

وأخيرا ما هذه الزوبعة حول البربرية في هذه الظروف الحرجة، ونحن في حاجة إلى لم الشمل، وقد أصبح يغذيها الحزب الشيوعي الجزائري، والشباب المناضل يذهب ضحيتها. ثم ما معنى أن يكلفوك أن تذهب إلى الشرق - في وقت الجزائر في حاجة إليك - مع الشرط أن تبقى هناك ولا ترجع، هناك أشياء وأشياء تتطلب الجواب وقد ضاعت الثقة بين المناضلين والإدارة وأصبح الارتجال والتلاعب بالقيم حديث الخاص والعام».

وفي الأخير وقبل أن يذهب ليستريح لأن الحديث طال وتشعب قال لي : «لقد سئمت العمل في هذا الجو الخانق وأنا في حاجة إلى تبديل الجو وقد أصبحت لا أثق في هؤلاء الوحوش الذين لا يحسنون إلا التحطيم وقطع الطريق عن الأعمال الجادة وأطلب من اللّه أن يلهمنا جادة الصواب وقد تعبت الآن وأنا في حاجة إلى الراحة». وهنا ودعته وكانت هذه آخر مقابلة لي معه.

الـمـلاحـق

Mes chers amis. Mardi le [illegible] est venu et j'ai eu avec lui
un entretien qui a duré 1h½ durant lequel, il m'a fait l'historique
de ses fonctions, des certaines réalisations déjà accomplies, et d'autres
à venir. Il m'a mis au courant des bonnes intentions du gouverne-
ment quant au problème algérien. Aussi il m'a parlé longuement
sur l'épuration de l'administration algérienne et m'a déclaré
que s'il y a quelque chose de changé en France [illegible] et
l'Algérie ne manquera à son tour d'en profiter. Enfin il
m'a fait l'exposé détaillé de l'Algérie, et cela montre qu'il est
au courant de tout. C'est un homme fin, habile, et très diplomate.
Il m'a montré le journal où j'ai lu que Weygand est de retour
en France, et qu'il a fait admettre au Conseil national de Vichy
des musulmans algériens. Il m'a dit aussi qu'il a été dans
le [illegible] et qu'il a vu nos amis un par un. En fin de conversa-
tion il a [illegible] ... et vous, vous autres
[illegible], vous devez faire un geste. [illegible]
[illegible]
le gouvernement voudrait quelques assurances, et pour cela
je vous prie de me faire une déclaration où vous reconnaissez
[illegible] ...
au passé
Jamais je ne renoncerais, et je ne ferai pas de déclaration.
[illegible] porte-parole de [illegible] à leur pensée que ja-
mais on me demanderait de déclaration. Ici je lui ai fait
l'historique des négociations. Puis à mon tour j'ai pris
la parole [illegible] thème, ma bouche était devenue amère,
je lui ai porté mon cœur qui débordait. J'ai tout repassé
[illegible] problème algérien [illegible]
Chakib Arslan, [illegible] mécontentement [illegible]

هذه رسالة بعثها من قاع سجن الحراش إلى رفقائه في السجن يخبرهم عما دار بينه وبين الكولونيل «شين» وجوابه إليه أيام الحرب العالمية الثانية قبل محاكمته.

WILAYA

DAIRA

COMMUNE

ETAT CIVIL

N° 339

ACTE DE NAISSANCE

Copie intégrale

Le (1) ... mil ...

... heure ... est né à ...

(2) ...

du sexe ... fils de ...

et de ...

domiciliés ...

Dressé le (1) ...

heure ... sur la déclaration

faite (3) ...

Suivent les signatures :

Pour copie conforme :

Tlemcen le 24-05-94

Cachet de la Commune

شهادة ميلاد مصالي الحاج طلبها المؤلف من بلدية تلمسان.

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

ولاية ....
دائرة تلمسان
بلدية ....
رقم 7910

نسخة من الدفتر الأصلي

المتعلق بعرش ....
فرقة ....
الاسم العائلي مصالي ....
الاسم (اللقب القديم) أو اسم الأسلاف أو الكنية إذا كانت
[illegible]
....
الرقم 7910 من الدفتر الأصلي ....
المهنة [illegible] ....
العمر في سنة 1889 [illegible]
ملاحظات ....

نسخة مطابقة للأصل
[illegible]
ضابط الحالة المدنية

شهادة ميلاد مصالي الحاج وكان عمره يوم تسجيله في سجّل الحالة المدنية سنة 1889 50 سنة.

الكتاب الثاني

مفدي زكريا
عبد الحميد بن باديس
الأمير خالد
محمد العيد آل خليفة
أحمد توفيق المدني
أكلي بانون
جمال الدين سفينجة

12

مفدي زكريا رائد الأدب الثوري في المغرب العربي

في صحرائنا الواسعة الساحرة، وفي طبيعتها الرائعة الفاتنة، نشأ شاعرنا مفدي زكريا، مغرما بالتغني بالوطنية، ومولعا بحب الحرية، ومتعشقا للجمال في شتى ألوانه. ولنستمع إليه في الياذته الرائعة، يتغنى بمغاني صباه.

تقدس واديك، منبت عزي
ومسقط رأسي، والهام حسي
وربض أبي، ومرابع أمي
ومغنى صباي، وأحلام عرسي

وحين يعود إلى نفسه يقول :

الا ما لهذا الحساب... ومالي؟
وصحراؤنا نبع هذا الجمال
هنا... مهبط الوحي للكائنات
حيال النخيل، وبين الرمال
تبادلنا الشمس اشعاعها
ويلهمها الصفو، نور الهلال

ثم يستدرك فيقول :

فيا أيها الناس، هذي بـلادي
ومـعبـد حـبي، وحـلـم فـؤادي
وايمان قلبي، وخالص ديني
ومـبناه... في ملتي واعتقادي
بلادي، أحبك فـوق الظـنون
واشـدوا بـحبـك في كل نادي

ما احوجنا إلى هذه العواطف الوطنية الآن، حتى نتمكن من تشييد هذا الوطن العزيز في إطار هويته الأصيلة، وبالروح الحضارية للمستقبل.

إن الحديث عن مفدي زكريا، وعن شعره، وعواطفه الجياشة، يطول ويتشعب، وإذا حاولنا أن نستقصي بعض جوانبه، فإننا نغرق في بحر لا ساحل له.

وسأقتصر هنا على ناحية خاصة، لم تدرس إلى الآن، ولم تذكر، ألا وهي ريادته للأدب الثوري في المغرب العربي.

ويجمل بي أن أحلل الينابيع التي استقى منها، وتأثر بها. وما زاد عليها من عبقريته الخاصة، قبل أن أتحدث عن طريقته التي اختارها وآمن بها.

مدارس التجديد في الأدب العربي

كانت الرابطة القلمية[1] في المهجر الشمالي الأمريكي، مدرسة التجديد في الأدب العربي الحديث اطلاقا : في الشعر منه وفي

1. الرابطة القلمية لعيسى الناعوري بتصرف عن مجلة الحياة، الثقافية التونسية، عدد 36–37، ص. 27.

النثر على السواء، وقد ظهرت هذه المدرسة بشكل متكامل، في شهر نيسان 1920 في مدينة نيويورك وفي دار جريدة السائح التي كان يصدرها عبد المسيح حداد، إلا أن تباشيرها بدأت منذ عام 1913 وعلى صفحات مجلة الفنون التي كان يصدرها الشاعر نسيب عريضة، ولكن هذه المجلة كانت تتعثر بين الصدور والتوقف، إلى أن توقفت نهائيا عام 1918. وكان نواة رابطة التجديد وطلائعها ثلاثة كتاب وشعراء، هم: نسيب عريضة صاحب المجلة وجبران خليل جبران، وأمين الريحاني، ثم انضم إليهم ميخائيل نعيمة عام 1916.

لم يكن أعضاء الرابطة متساوين في أدبهم، وإنما كان البارزون منهم والقادرون على العطاء الجديد خمسة منهم فقط، هم : جبرال خليل جبران، نعيمة، أبو ماضي، نسيب عريضة ورشيد أيوب، وكان الباقون أعوانا وأنصارا.

على أن شيئا كان يجمع بين هذه الفئة الصغيرة، وهو الروح التي ينطلق منها أدبهم : الأدب القوي منه والضعيف... وسرعان ما انتشر أدب الرابطة القلمية في العالم العربي بشكل مدهش ومفاجئ، ويحمل معه أشعة جديدة من نثر جبران وشعره ومن نقد ميخائيل نعيمة وأقاصيصه وشعره، ومن شعر ايليا أبو ماضي، ونسيب عريضة، ورشيد أيوب، الملئ بالعناصر الجديدة الرائعة، التي لم يعرف الشعر العربي مثلها.

لقد جاءت الرابطة القلمية، مدرسة جديدة في الأدب العربي : مدرسة حقيقية تقدم وتعلم أشياء جديدة مفاجئة، فيها حرية التفكير، وحرية التعبير، وحرية الخلق والإبداع، وحرية العطاء السخي.

وقد ظهرت مع الرابطة القلمية في المشرق دعوة إلى التجديد في الشعر هي دعوة أصحاب الديوان : عبد الرحمن شكري وعباس محمود العقاد وابراهيم عبد القادر المازني. وظهرت بعد الرابطة في المشرق كذلك، دعوى أخرى إلى التجديد في الشعر، هي جماعة «ابولو».

جماعة الديوان وجماعة ابولو، لم تستطيعا أن تضيفا إلى مضامين الشعر القديم والأدب التقليدي شيئا جديدا، ولم تتميز شخصيات أصحابها الأدبية، بأساليب متفردة متميزة، كما استطاع أدباء الرابطة وشعراؤها أن يتميزوا بشخصياتهم، ويعرف كل منهم بأسلوبه المتميز المتفرد.

إلا أن هناك جماعة صغيرة، لا تعدو الثلاثة، كانت تتلقى دروسها بتونس المحروسة، وتلتقي في المساء لتتذاكر دروسها، وتتناقش فيما يدور على الساحة السياسية العربية، وتطالع ما جد من أدب المهجر : شعره ونثره و نقده وإبداعه. كما تقرأ لأصحاب الديوان، وجماعة «ابولو» وتشارك مع هذه الأخيرة كما فعل الشابي، ولكنها تهتم اهتماما كبيرا وتتعلق تعلقا شديدا بالعاطفة الوطنية التي كانت تنقص الجماعات الأخرى، فتدرس حياة مصطفى كامل زعيم الحزب الوطني المصري التي كتبها أخوه بشغف وحماس، وتستظهر خطبه النارية ومقالاته الثائرة وتتأثر بروحه الشفافة ونشاطاته المتعددة.

وكانت الجماعة الصغيرة مركبة من شاعرنا مفدي زكريا كمنشط، ورفيقه رمضان حمود وثالثهم أبو القاسم الشابي. وسواء كان الثلاثة يلتقون في وقت واحد أو يلتقي بهم شاعرنا الواحد بعد الآخر، فالنتيجة واحدة، وكل من يدرس أدب الثلاثة يدرك هذه اللحمة التي تجمع بينهم والاتجاه الذي يسيرون فيه.

هؤلاء الثلاثة لم يرحم الموت شباب اثنين منهم، فقد رمضان حمود سنة 1929، ومات أبو القاسم الشابي سنة 1934، ولم يبق إلا شاعرنا في المعركة، ولو قدر لهؤلاء الثلاثة أن يبقوا متكاتفين، ويساهم كل واحد منهم بمجهوده الخاص، لكونوا مدرسة جديدة يحسب لها ألف حساب، ولخطوا بالأدب العربي الوطني الثوري، خطوات عملاقة تغير وجه التاريخ، وتعطي للنهضة العربية دفعا جديدا يحميها من التعثر والدوران. ومع هذا فإن شاعرنا بمفرده، قد قام بما تعجز عنه الجماعات، وبقي فريدا في الياذته، التي لم يأت بمثلها شاعر عربي أو غير عربي، في زمن كانت أزمة الشعر خانقة في العالم كله.

هذا من الناحية الأدبية وتأثيرها، أما من الناحية السياسية، فقد عاش مخاض أحداث الحرب العالمية الأولى، وما نتج عنها من حركات تطالب بتقرير المصير، وبالمجابهة للاستعمار. وعاش في تونس بجانب عمه الشيخ صالح بن يحي، أحد الأقطاب الثلاثة الذين اسسوا الحزب الحر الدستوري. كما تعرف على شخصية الزعيم الوطني عبد العزيز الثعالبي الذي كان يتردد باستمرار على بيت عمه، بحكم الصداقة التي تربطه بعمه الشيخ صالح.

وفي نفس الفترة تكونت لجنة بجنيف من تونسيين وجزائريين لتقديم مطالب الشمال الإفريقي إلى مؤتمر السلم بباريس. وفي مصر اشتعلت ثورة 1919، ونفي سعد زغلول على إثرها، وفي تركيا ثورة مسلحة ضد الحلفاء، وضد الحكم، وفي الريف حرب ضد الإسبان، ثم ضد فرنسا، وفي سوريا ثورة أيضا.

وفي هذه الفترة بالذات، وبالتحديد في جوان 1926 تأسست جمعية «نجم الشمال الإفريقي» بباريس، وبدأت صحيفتها الإقدام

الباريسي تدخل تونس، وتكون لجان لإعانة الجمعية، ثم تتأسس جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين بباريس، ويشارك شاعرنا في جل مؤتمرات الطلبة بتونس والجزائر العاصمة وتلمسان، ويقدم في المؤتمر الرابع بتونس عقيدة الشمال الإفريقي في عشر مواد، وقد أصبحت على لسان شباب الشمال الإفريقي، وما أن عرف بوجود فرع نجم الشمال الإفريقي بالعاصمة حتى انخرط بجانب المناضل غرافة ابراهيم الذي كان من الأولين. وحين حل رئيس النجم بالعاصمة يوم 2 أوت 1936، والقى خطابه التاريخي الذي أوقف الإسهال الاندماجي وركز فكرة الاستقلال، حتى ظهر شاعرنا بثقله الثقافي، وقيمته الأدبية، ومواقفه الثورية. ودخل المعركة بكل قواه، وأصبح شاعر الحركة الاستقلالية، يدافع عنها، ويتكلم باسمها. وكان لنشيده الوطني الأول : فداء الجزائر روحي ومالي، الا في سبيل الحرية ! صدى ما زال يرن في الآذان، ويلقى الروعة في كل ناد.

وها هي عينات خاطفة من روائع نثره وشعره.

ولنبدأ بافتتاحية الشعب العدد الأول المؤرخ بـ 27 أوت 1937، مخاطبا الشعب :

«فاننا نتقدم إليك، أيها الشعب العربي الكريم - في غبطة الواثق، واطمئنان الصادق - ناشرون بين يديك، صحيفتك الخالدة، بدم المهج كتبناها، وبريشة القلب رسمناها : مستمدين من روحك الطاهرة - يا شعب - وحي المعاني، وناثرين على اقدام حبك وغرامك - يا شعب، لذيذ الاحلام، ومعسول الأماني !! ولقد اذن مؤذن ايها الشعب البدار ! البدار ! فلات حين هجوع ! ودوت في السماوات الصرخة الكبرى، فلات ساعة خنوع ! وازلفت السعادة يومئذ للعاملين الصادقين، وبرزت اللعنة

والهزيمة للمتثاقلين العابثين، وأخذ الذين ظلموا الصيحة، فاصبحوا في ديارهم جاثمين. وسلام عليك - يا شعب - يوم كنت حرا عزيزا، ويوم أردت أن تسترجع عزك وحريتك، ويوم تعود بفضل جهادك، واعتمادك على نفسك، سيد أرضك، ورب بلادك ...!»

هل رأيت أيها المستمع الكريم، قبل هذا أو بعده، هذه العاطفة الجياشة بالحب الصادق والتقدير، نحو الشعب الجزائري، الذي لم يكن يدعى من طرف الصحافة أو رجال السياسة إلا بالأهلي الخانع، أو العربي المتواكل. ثم ينادي الكتاب، ويكلمهم بلسان الشعب، فيقول : «انما يسائلكم الشعب عن ثلاث: النزاهة، والاختصار، والوضوح. حذار ! ان ينسيكم الشيطان ان الصحافة تلقب بصاحبة الجلالة فاربأوا بصاحبة الجلالة أن تسفل، وان يداس تاج جلالها ووقارها لستم - على ما أظن - باقل منا غيرة على هذا التاج الذي طالما نزل به بعض اشقياء بني آدم إلى مواطئ النعال، فارحموا عزيزا ذل وعاليا نزل...»

ونعتذر لصاحبة الجلالة أن نعلق على هذه الكلمات، فالحال يغني عن السؤال.

وللدلالة على تأثره بمصطفى كامل هذا التضمين الرائع لبيتين من شعره

رفقا بلادي ! فأنت الكون اجمع
لولاك، كنت بلادي هالكا فاني
لك الفؤاد، وما في الجسم من رمق
ومن دماء، ومن روح، وجثمان

لك المقاب، وما في الكون من نفس
مدى يمين الوفا، يا عين انســـاني
لك الحياة، فجودي بـــالوصال، فــما
أحلى وصالك في قـلبي ووجـــداني

وهذه الأبيات من قصيدته العصماء التي ألقاها في مؤتمر طلبة شمال إفريقيا بتلمسان سنة 1935 والتي مطلعها :

لح فــي الجــزائر كالــهلال ضياء
وانــزل كريما كالنســيم صفــاء

يقول فيها :

وطني بروحي افتديك ومهجتي
ودمي الشــريف، مبرة ووفــاء
عهد - عليّ مدى الحياة مقدس
يــذكي عــروقي نخــوة وإباء
حسبي فخــارا في حياتي أنني
اغــدو علــى وطني الـعزيز فداء
وإذا الفتي لــم يــرع عـهد بــلاده
فأقــم عــليه مــأتــما وعــزاء
وطنــي غــرامك في الفؤاد خالد
مــلأ الجـوانـــح روعــة ورواء
ارسلت فيك الخـــلود قصـائدي
مثـل الـمجـرة وفـــرة وســناء
وسكبت فيك على القريض مدامعي
قــطعا، تلهب في الفــضاء ضياء

وهذه القطعة من قصائده الأولى التي نشرت عام 1926.

بني وطني، هــذي الحيــاة شريفــة
لجوا بابها، واستصحبوا المنهل العذبا
بني وطني، هذي الحـضارة، فاقـتفوا
بريق المنى، واستبدلوا محلكم خصبًا
بني وطني، يكفي الجـمود، فشمـروا
على ساعد الاقدام، واقتحـمـوا الخطبا
بني وطـني، هــذي السعادة فـوقكم
على مفرق الجوزاء، ثبوا نحـوها وثـبا
بنــي وطــني، من يعش عن نفع قومه
فـلا اسـكن البـاري بجـثـتـه قلبا

ومن قصائده الأولى على لسان الإسلام يقول

نهـضـت عـلـى ديــن الاله مـناضلا
وليـس لغير الـلـه سـعي واقبـالي
وقفت، وسيف الحق في الكون سـاطع
لتــهذيـب أرواح، وتقـطيع أوصـــال
فـاضحـي عــلـى هــام الطغاة محكما
سـوى بـدماء الـنصر ليس بـهطـال
رأيــت جنــان الخــلـد تحـت ظـلالـه
فـاضحي لي الحامي، بحلى وترحـالي
وايـقــنـت أن المجد سـبــل خطيـرة
فـقدمت دون المجد روحي وأمــوالي

فما المجد إلا جنة، دون وصلها
تناثر أعناق، وتمزيق آجال
تدرعت بالعزم الصدوق، فلم تكن
سوى القبة الزرقاء مطمح آمالي

ونختم هذه الجولة القصيرة بأبيات من القصيدة الرائعة التي حيا فيها عودة الشيخ عبد العزيز الثعالبي، باسم حزب الشعب الجزائري.

أيها الشعب خل عنك الأماني
واركب العزم، واترك الجمودا
واستبق للحياة وابن مع العز
على النيرين قصرا مشيدا
وعلى النفس فاعتمد، وتقدم
واقتحم في الحياة عصرا جديدا
كل من يعتمد على الغير اضحى
بيد الغير في الحياة مسودا
كل من يرتضي حياة هوان
عاش في أرضه، الشريد الطريدا
وطني بالدم الزكي افدي
ك يمينا شريفة وعهودا
وطني، أنت جنة الخلد في الأرض
فهيهات في الورى أن تبيدا
وطني، اننا ضحاياك في السلم وفي
الحرب بغية أن تسودا

هذه نظرة سريعة لموضوع واسع، يحتاج إلى الدراسة والجهد، وقد أثرته لدفع طلابنا وشبابنا المثقف إلى الاهتمام بالأدب الثوري الجزائري، وتعريته مما علق به تخليط وتزوير، وإلى دراسة شاعر عظيم قام بدور الريادة للأدب الثوري في المغرب العربي، ساعد بنصيب وافر في نشر الوعي الوطني ودعم الثورة التحريرية، كما أنّ أناشيده وقصائده ما زالت تبعث النخوة والكرامة، لا في الجزائر فقط، بل في العالم العربي والإسلامي اجمع، وبقدر ما قدم لوطنه من حب وتضحية، جوزي بالتنكر وعدم الوفاء، وهذه طبيعة الأمم المتخلفة، فليرحمه الله في تلك الدار. وليعوضه - عن جفاء وطنه - جناته الواسعة.

مع شاعر الشمال الإفريقي مفدي زكريا

كان لكتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر للأستاذ محمد الهادي السنوسي، الفضل في الاطلاع على ما انتجته قرائح شعرائنا الأمجاد قبل الثلاثينيات.

وكان الكتاب بالنسبة إلي، اكتشافا جديدا، انتشيت بروائعه وقد حفظت منه الكثير، ولا زلت أذكر القصيدة الأولى التي كنت أرددها واتوق كلماتها، ومطلعها:

بني الجزائر هذا الموت يكفينا
لقد أغلت بحبل الجهل أيدينا

ومنه هذا البيت الذي جمع فاوعى

فقر، وجهل، وآلام، ومسغبة
يا رب رحماك هذا القدر يكفينا !

والقصيدة عامرة بالعواطف الجياشة، وهي للشاعر محمد السائح اللقاني، وقد لفت انتباهي في الجزء الأول شاعران : الأول رمضان حمود بأفكاره الجديدة، والثاني مفدي زكريا، وبدأت اتلقط أخبارهما، فعلمت أن الأول ذوى في زهرة شبابه، وترك كتابه الرائع بذور الحياة، ولم أتمكن من مطالعته إلا بعد الأربعينيات لعدم وجوده في السوق. أما الثاني وهو شاعرنا الذي نتحدث عنه فقد علمت من تحرياتي أنه تاجر بنهج لالير بالعاصمة، وكنت أمني النفس بزيارة العاصمة، لاتعرف عليه وكنت أقرأ له بين الفينة والأخرى مقطوعات في جرائد الشيخ أبي اليقظان المتتابعة، وجريدة النجاح القسنطينية.

وفي صيف 1932 انعقد المؤتمر الثاني لجمعية طلبة شمال افريقيا بنادي الترقي بالعاصمة، وقد شارك فيه بعدة قصائد، منها قصيدته الرائعة التي ألقاها في الافتتاح، وقد تركت صدى في جميع المشاركين، حتى أن الأخ المنجى سليم كان يذكره بها كلما لقيه، ويرددها عليه كما ألقاها بنفسه، ومطلعها :

على منبر النادي، احي بني النادي

لتستمع الدنيا روائع انشادي

ومنها : نهوضا بني افريقيا من سباتكم، وكررها عدة مرات.

وفي شهر سبتمبر 1935 انعقد المؤتمر الخامس لجمعية طلبة شمال افريقيا بمدينة تلمسان. وقد حضرت جلسة من جلساته بنادي السعادة، الذي تكفل بايواء اشغال المؤتمر بعد طرده من قاعة البلدية، وكان الموضوع : «التعليم العربي في أقطار الشمال الإفريقي». وأثناء المناقشة طلب الكلمة الأستاذ محمد الهادي السنوسي الذي كان

معلما بمدينة سيدي بلعباس وممثلا لجمعية العلماء بها، ليطرح السؤال الآتي : «كيف يمكن تنفيذ القرارات التي تتخذونها ؟ وقد درست جمعية العلماء الموضوع واتخذت قرارات، ولكنها بقيت حبرا على ورق»، وإذا بصوت ينطلق من وسط القاعة ليقول كلمة واحدة، تهز الحاضرين. وتلتقي الاعين كلها لترى صاحب هذه الكلمة، وإذا به الشاعر مفدي زكريا بلحيته الخفية وطربوشه الأحمر الطويل.

نحن العروبة... والشمال بلادنا

أما الكلمة التي أطلقها كالقنبلة فهي «الثورة» كوسيلة للتنفيذ وكلمة الثورة هذه كانت بالنسبة إلى أغلبية الحاضرين، شيئا جديدا. كانت غريبة عن مجتمعنا. فالثورة لم تكن تذكر إلا في كتب التاريخ أو كحلم لبعض الشعراء والفلاسفة.

أما في الجزائر، وفي السنة التي يسن فيها «قانون رينيي» الخاص بالسياسيين، وبعد قوانين الانديجينا وقانون الغاب، وبعدما وقف شيخ بلدية تلمسان - المعمر الكبير «فالور» ضد انعقاد جلسات المؤتمر بقاعة البلدية، كما كان مقررا، بعد هذا كله، يفرقع شاعرنا قنبلته بكل بساطة وببرودة تامة.

هذه اللحظة بالذات لم تبرح مخيلتي وسأذكرها دائما، وانتشي بأصدائها. وفي هذا المؤتمر طلع علينا مفدي زكريا بهمزيته الرائعة.

لح في الجزائر كالهـلال ضياء
وانــزل كريما كالنسيم صفاء

وفيها يقول :

إن الجزائر في الغرام وتونسا
والمغرب الأقصى خلقى سـواء

نحن العروبة، والشمال بلادنا
وبه نعيش أعزة كرماء

وأثناء أشغال المؤتمر أقيمت بالنادي الإسلامي بتلمسان حفلة تأبينية للشاعر التونسي الكبير أبو القاسم الشابي بمناسبة مرور سنة على وفاته. وألقى فيها مفدي زكريا قصيدته المشهورة، كما ألقى محمد العيد الذي كان ضمن المؤتمرين قصيدة في نفس الموضوع.

كانت سنة 1936 منعرجا سياسيا في حياة الجزائر. فبعد نجاح الجبهة الشعبية في الانتخابات التشريعية بفرنسا، تأسست حكومة من أصحاب اليسار، وصودق على قانون العفو العام، وظهرت الحياة السياسية لأول مرة في الجزائر، وانعقد المؤتمر الإسلامي الجزائري يوم 7 جوان بالعاصمة، وذهب وفد من المؤتمر إلى فرنسا - يضم النواب والعلماء والشيوعيين ليقدموا مطالب الأمة الجزائرية المسلمة، وتتلخص المطالب السياسية في نقطتين: إلحاق الجزائر بفرنسا، والمشاركة في الانتخابات التشريعية الفرنسية. وعند رجوع الوفد إلى الجزائر، رافقهم على نفس الباخرة رئيس نجم الشمال الإفريقي مصالي الحاج، وألقى خطابه التاريخي يوم 2 أوت بالملعب البلدي بالعاصمة، وأخذ حفنة من التراب الجزائري وصرخ بأعلى صوته : «هذا التراب لا يمكن أن يكون فرنسيا»، ونادى بكلمة الاستقلال للمرة الأولى في تاريخ الجزائر من يوم الاحتلال على مرأى ومسمع من وفد المؤتمر الذي بقي مبهوتا ترتعد فرائصه من وقع هذه الكلمة.

وهنا ظهر مفدي زكريا بثقله الثقافي وقيمته الأدبية، ومواقفه الثورية في إطار جمعية طلبة شمال إفريقيا لتأييد فكرة

الاستقلال، ودخل المعركة بكل قواه وأصبح شاعر الحركة الاستقلالية المتمثلة في نجم الشمال الإفريقي ينافح عنها ويتكلم باسمها.

وفي هذه الظروف وصلتني أول رسالة له من غير سابق معرفة، إلا شرف الانتساب إلى الحركة الاستقلالية التي أصبحت تجمعنا من بعيد.

وقد زار تلمسان في أواخر نوفمبر أثناء جولة في العمالة الوهرانية، والجولة كانت تجارية وسياسية.

وقد وصلتني برقية من وهران يخبرني فيها بالوقت الذي انتظره، وكانت الحافلة تصل على الساعة الرابعة ونصف وكنا في شهر رمضان، وهذه المرة الأولى التي أقابله فيها، وكأننا نعرف بعضنا من زمان، وذهبنا رأسا إلى المنزل لأن آذان المغرب كان حوالي الخامسة.

وقد أقام له نادي الرجاء الذي كان وطنيا حفلة استقبال دعا إليها أعضاء نادي السعادة ونادي الشبيبة وأثناء الكلمة التي ألقاها قرأ لنا النشيد الوطني : فداء الجزائر الذي لم يكن معروفا بعد، وقد حضر تمارين التمثيلية التي كان يهيئها نادي الرجاء ليوم عيد الفطر، وكان موضوعها «احتلال طرابلس» من طرف الاستعمار الايطالي، وعنوانها هند وأعجب بالممثلين الذين كانوا هواة فقط ولكنهم كانوا في القمة.

وقد حدثني كثيرا عن مصطفى كامل وحياته النضالية وكلماته في الوطنية والتضحية، ونبهني إلى حياته التي كتبها أخوه. فقد كان يحفظها عن ظهر قلب وفي اليوم الثاني من زيارته لتلمسان، وكأنه كان على موعد مع اجتماع الحزب الشيوعي وكان خصمه

العنيد عمار وزقان هو الذي يتصدر الاجتماع وكعادة الشيوعيين في تلك الظروف بالذات، بدأ بانتقاد نجم الشمال الافريقي ورئيسه، وبما أن القاعة كانت غاصة بالوطنيين وعلى رأسهم مفدي زكريا، وقد طلب الكلمة ليرد على المهاترات التي كان يرددها، ولكنهم رفضوا كعادتهم، وهناك بدأ اللغط والمشاجرات وأجبر على السكوت، والخروج من قاعة البلدية بعد معركة حامية الوطيس بالكراسي، وهكذا كانت أغلب الاجتماعات مع الشيوعيين تنتهي دائما.

ويُحل نجم الشمال الافريقي في 26 جانفي 1937، ويتخذ اسم «أحباب الأمة» للعمل السياسي. قررت هذه الأخيرة إرسال لجنة إلى تونس الشقيقة للتنفس ولشرح الحالة بالجزائر ثم إلى إرساء قواعد المغرب العربي في أرض الوطن بعدما كانت في المهجر مع إخواننا التونسيين، وقد كانت اللجنة تحت رئاسة الأستاذ مفدي زكريا.

وقد كنت ضمن اللجنة المذكورة، والتقينا بمدينة قسنطينة حيث زرنا بعض معالمها وتقابلنا مع بعض الشخصيات، منها الشيخ بلعابد الذي كان قائما بنشاط مسرحي وثقافي لا بأس به.

وفي تونس الشقيقة اتصلنا بقادة الحزب الحر الدستوري، وباللجنة التنفيذية وزرنا جريدة النهضة والزهرة وجريدة الشباب التي كان يديرها الفنان الكبير محمود بيرم التونسي، وكان مشهورا بنقده اللاذع، وبتحليله للشخصيات الفنية والسياسية وبازجاله الهادفة وقد اسمعنا عدة ازجال طلبها منه مفدي زكريا الذي كان يعرفه معرفة تامة، ولا اكتمكم أن لشاعرنا مفدي زكريا في تونس مكانة مرموقة في الأوساط الأدبية والفنية والسياسية.

وبعد رجوع الوفد إلى الجزائر بقي شاعرنا بتونس يقوم بالاتصالات السياسية والأحاديث الصحفية، والمحاضرات الثقافية، وقد ألقي بقاعة الخلدونية محاضرته القيمة تحت عنوان الجزائر في طريق الحياة وقد نشرت تباعا بجريدة النهضة أثناء إقامته بتونس تأسس حزب الشعب الجزائري يوم 11 مارس، وقد أعلن عنه للصحافة وعرف به.

وبعد رجوعه من تونس، استأنف العمل في إطار حزب الشعب الجزائري الجديد، ورشح للانتخابات البلدية بالعاصمة في قائمة حزب الشعب، وقام بنشاطات مختلفة.

وفي آخر جويلية زار مدينة وهران مع وفد من حزب الشعب يرأسه مصالي الحاج ويضم الأخ حسين الأحول ومحمد مسطول ومحمد بالامين وتقابلت معه وكان مرفوقا بصديقه الأستاذ محمد السعيد الزاهري الذي كان يقيم بوهران، وقد دار الحديث حول فتوى الشيخ الطيب العقبي للسماح للمتجنسين التونسيين أن يدفنوا في مقابر المسلمين، ولم أكن على علم بها... وقد أثارت هذه الفتوى ضجة.

وبعد رجوع الوفد الحزبي إلى العاصمة، بعد القيام بتجمع شعبي في المدينة العربية، بدأت أيام التضامن مع الشعب الفلسطيني وقد اعتقل هو والأحول ثم أطلق سراحهما.

مفدي زكريا في سجن بربروس

كان حزب الشعب الجزائري، والقوى الوطنية المكافحة على موعد مع صدور جريدة وطنية باللسان العربي لتقود المعركة السياسية، ونشر الوعي الوطني، وتقوم بتعريب الأجهزة التنظي-

مية، وذلك يوم 27 أوت 1937. ولكن شاءت الأقدار أن يتأخر يوم الصدور وتعوض باعتقال قادة حزب الشعب وفيهم شاعرنا.

خرجت جريدة الشعب بعد ثلاثة أيام تعلن نبأ الاعتقال، وترفع راية الكفاح الوطني بلسان عربي مبين، وبحماس منقطع النظير، والجريدة لسان الحركة الوطنية بالجزائر المسلمة العربية وفوق العنوان ما يلي : إرادة الشعب من إرادة الله، وإرادة الله لا تقاوم وكان مديرها السياسي: مصالي الحاج، ورئيس قلم التحرير : مفدي زكريا.

وبدأ الكفاح داخل السجون وخارجها، وكان أول يوم استنطاقهم من طرف قاضي البحث معركة عند باب السجن، لم يخرج ممثل العدالة إلا بشق الأنفس، ثم كانت معركة الحصول على الحقوق السياسية، فقد اجبروا على الإضراب عن الطعام من أول أكتوبر إلى العاشر منه حتى افتكوا الحق السياسي ويحقق لأول مرة في الجزائر وقد رشح في الانتخابات العمالية بمدينة قسنطينة كرمز يوم 17 أكتوبر.

ولكن المعركة الكبيرة كانت يوم المحاكمة التي ابتدأت يوم 2 نوفمبر وانتهت يوم 4 منه، بإصدار الأحكام التعسفية وذلك بسنتين سجنا وبمنعهم من التمتع بالحقوق السياسية والمدنية، وقد وقف شاعرنا أمام المحكمة يجادل ويفسر كلمة الجهاد الموجودة في النشيد الوطني بمعناها اللغوي وتوصل إلى رفض المترجم الشرعي وتبديله بمترجم آخر، وكانت المعركة حادة دلت على أن شاعرنا كان في القمة.

وفي 25 فبراير 1938، أي بعد سبعة أشهر، اعتقل الفوج الثاني من الحركة الوطنية وكنت من ضمنه، وفي اليوم الثاني من إقامتنا

ببربروس مر على زنزانتنا التي كانت في طريق مستوصف السجن الأخ مفدي زكريا وكان الصمت يخيم على السجن سمعناه يدندن بيتين من الشعر القديم كتحية ورمى لنا بورقة من ثقب الباب كانت تضم تحية شعرية نشرت في غير هذا الموضوع، وهكذا كان ثاني يوم في بربروس ابتداء لحياة أدبية جديدة ضاع معظم انتاجها بين التفتيشات المتكررة، وبعد أيام طلعنا إلى الطابق الثالث مع الفوج الأول من مساجين حزب الشعب، وبدأ حديثي مع مفدي زكريا في الشعر. سألته هل كتب شيئا في هذه المدة فقال لي ما عدا نشيد : اعصفي يا رياح الذي أصبح نشيد السجن، وإلا مقطوعات صغيرة منها أبيات كان يهدهد بها قطة صغيرة كانت معه في مستوصف السجن ومطلعها :

نـامـي عزيزتـي نامي
كـم لـذة في الـمنام

أما المقالات السياسية والأدبية، فقد كتب عدة مقالات نشرت في المجلات الشرقية والتونسية بالخصوص، وكانت تمر علي حينما كنت خارج السجن بواسطة الحلاق الذي كان يأتي كل أسبوع للسجن في إطار السجن السياسي.

وفي أحاديثنا عن الشعر حكى لي صداقته الحميمة مع الشابي ورمضان حمود وكيف كان يشجعهما ويساعدهما في كتابه الشعر. وكان الثلاثة يجتمعون في المساء وكانوا يطالعون حياة مصطفى كامل وخطبه التي كتبها أخو مصطفى وقد ظهر تأثرهم الثلاثة بحياة مصطفى كامل وبأسلوبه العاطفي الشفاف.

لقد بدأ يمرنني على كتابة الشعر وذلك بإعطائي أبيات للتشطير وكان يتمنى أن يجعل مني شاعرا أقف بجانبه في المعركة الصامتة التي كانت بينه وبين الشاعر محمد العيد، والمعركة لم تكن شخصية بل سياسية إن لم نقل ايديولوجية فمحمد العيد كان لسان الإصلاح الديني وانصاف الحلول، ومفدي زكريا كان دائما مع الثورة السياسية والثقافية، وسواء في جمعية شمال إفريقيا أو مع نجم الشمال الإفريقي أو حزب الشعب الجزائري.

وفي يوم 16 مارس وصلنا في السجن نعي والد مصالي الحاج ومن الغد نعي والد مفدي زكريا، وقد طلبا من الإدارة السماح لهما بتشييع جنازة والديهما ولكن من دون جدوى، وهذا النوع من المعاملة كان معروفا في فرنسا للمعتقلين السياسيين.

وحينما كثر عددنا ببربروس - والفوج الأول كان يتمتع بالسجن السياسي لأن المحكمة أقرت به - وقع مشكل في الإدارة متعلق بمن الذي يدفع الثمن ؟ وهل للمعتقلين الجدد حق التمتع بالسجن السياسي ؟ ولهذا قررت الإدارة في آخر شهر مارس تقسيمنا بين سجن الحراش للمحكوم عليهم، وبوبروس لمن لازالوا في انتظار الحكم، وقطعوا السجن السياسي حتى على المحكوم عليهم. وهكذا قررنا في بربروس والحراش القيام بإضراب جديد، وبدأنا في تهيئة الجو، لأن الإضراب له قواعده التي لا تسمح بالارتجال، وكان أن استجابت الإدارة في اليوم الثاني من الإضراب عن الطعام وهكذا افترقنا وكانت اتصالاتنا بواسطة المحامين.

ومن هذه المدة إلى آخر لقاء بيننا في تونس في الأسبوع الأخير من حياته وقعت مقابلات ومحادثات وأعمال تضيق عنها هذه المذكرات.

13

مع الشاعر مفدي زكريا في أسبوعه الأخير

لا أدري لماذا أصبح عزمي هذه المرة على زيارة تونس في صيف سنة 1977 ولا أدري لماذا كنت أمني النفس بمقابلة صديقي القديم، ورفيق السجن والحياة الشاعر الكبير مفدي زكريا، وبعد غياب دام عدة سنوات. وكان التمني بالنسبة إلي يشبه الحقيقة بمقابلته. وبعد استفسار ولده الأخ سليمان عن امكانية زيارة والده لتونس هذا الصيف، أجابني : حسب معلوماتي الأخيرة ليست له رغبة في الذهاب إلى تونس ربما سيذهب إلى سويسرا ولكن تونس لا أظن، ولكن حدسي كان يقول غير هذا. وبالنسبة إلي زيارة تونس بغير صحبة مفدي، لا طعم لها ولا مذاق.

لقد كانت زيارتي الأولى معه في فبراير 1937 بعد حل «نجم الشمال الافريقي» من طرف حكومة «الجبهة الشعبية» في مهمة سياسية لإطلاع الرأي العام التونسي على الحالة بالجزائر، ولنبحث مع قادة الحزب الحر الدستوري وسائل العمل الموحد وإرساء لبنة المغرب العربي الكبير على أرض الوطن بعدما كانت في أرض الهجرة.

وقد شاركنا في التقارب الذي وقع بين طلبة الزيتونة، وطلبة الصادقية، لتقديم مطالب الطلبة بمناسبة زيارة الوزير «فيينو» إلى تونس. وكان شاعرنا مفدي يحظى في الأوساط الوطنية والثقافية بعطف لا مثيل له.

أما الزيارة الثانية - فكانت في ديسمبر 1963 بمناسبة أعياد الجلاء عن قاعدة بنزرت، وقد ألقى في مهرجانها قصيدة رائعة أعيدت أبياتها مرارا.

- والثالثة كانت في صيف 1964 بصحبة المرحوم الأخ الطاهر بن عمر، قمنا أثناءها بجولة أدبية وفنية بصحبة الفنانة شافية رشدي وزوجها المهندس وقد قضينا سهرة ممتعة بدار الزروق بسيدي بوسعيد.

وكانت هذه الزيارة الرابعة، وقمت - بعد لأي - بعملية التأشيرة لأم البنين ولي. وفي سيارتنا الخاصة، التي توصلنا إلى اقتنائها، وبعد انتظار ثلاث سنوات وتوكلنا على الله، قلنا : سننعم هذه المرة بسياحة تعوضنا عما ضاع من حياتنا، وتتبعنا الشواطئ اللازوردية التي لم نكن نعرف عنها إلا القليل، مرورا ببجاية وجيجل وسكيكدة وعنابة، وكان الجو رائعا، وقد أحسسنا بنعمة الاستقلال وتذوقناه، وكنا في شهر العسل الذي لم نعرفه في حياتنا الزوجية، لأن يوم العرس كان بالنسبة إلينا يوم امتحان مع الشرطة السياسية. وما أن وصلنا الحدود، وخرجنا من القالة، حتى اعترضتنا شرطة الحدود الجزائرية، وبدأت المشاكل البيروقراطية، وذلك لأن تأشيرة الزوجة تنتهي ذلك اليوم، وحاولت بجميع الوسائل أن أفهمهم بأنه لا زال في أيدينا هذا اليوم ويمكن أن نمر، ولكن من دون طائل، وهكذا رجعت الزوجة وحيدة إلى العاصمة لتعيد التأشيرة، ودخلت وحيدا إلى تونس.

وفي يوم الأربعاء 10 أوت، رجعت من الحمامات التي قضيت فيها ثلاثة أيام، قابلت فيه الأستاذ الطاهر قيقيه، مدير المسرح العالمي هناك، وتذكرنا إقامته بالجزائر حينما كان طالبا وكان عضوا في الحركة الوطنية الجزائرية، وتحدثنا عن موضوع

اختصاصه وهو تغريبة بني هلال وقد اخبرني بأنه حصل على معلومات جديدة من مصر ومن ليبيا وينوي أن يزور صحراء الجزائر عله يجد فيها ما يشفي غلته وقد شاهدت بالحمامات أفلاما ثلاثة وهي : عمر قتلتو، وعرس الزين للطيب صالح، والموميا، اتبعتها مناقشة هامة. قلت رجعت من الحمامات إلى العاصمة «تونس» الخضراء، وذهبت رأسا إلى مركز الحزب الدستوري لأسأل عن صديق هناك ولكني فوجئت - في إحدى الممرات الدائرية - بصوت يشبه صوت زكريا، يدندن بأغنية كعادته، ليستأنس بصوته، ولقد كان لا يرتاح للممرات المظلمة وكان راجعا من جنيف ساعتها، وبيده أمانة من سويسرة لأحد أصدقائه يعمل هناك. وما أن ناديته حتى توقف مبهوتا، وسررنا بهذه المفاجأة، وبعد سلام طويل، ودفعه الأمانة إلى صاحبها، ذهبنا توا إلى زيارة صديقه الحميم المحامي الكبير الأستاذ عمار الدخلاوي، وكنت أعرفه من قبل، وبما أني كنت بغير مسكن، فقد طلب المحامي بعض الفنادق ولكن من دون جدوى، وأخيرا قال لي ستنزل عندي في سيدي بوسعيد فعندي شقة خاوية، وافترقت مع مفدي لأنه كان على موعد لنتقابل في المساء.

وهكذا التقينا بوسط المدينة، وذهبنا إلى حلق الوادي للعشاء، وكان بصحبة الشيخ مفدي زكريا الأديب الحبيب شيبوب، صديقه الحميم، وكانت سهرة ممتعة تذكرنا فيها الماضي بأفراحه واتراحه. وبعد الثانية عشر ذهبنا جميعا إلى سيدي بوسعيد إلى سكناي الجديد، ورجع الاثنان إلى المدينة على أمل اللقاء في الغد بنفس الموضع.

ولم يكن على علم بوجود مفدي بتونس إلا صديقه المحامي والأخ شيبوب والمتحدث.

وفي يوم الخميس 11 أوت تقابلنا بالقرب من حلق الوادي، وجلسنا في ارتقاب وصول الأخ شيبوب، ومرت فتاة صغيرة لا يتجاوز عمرها الثالثة عشرة فتقدمت منه وسألته : هل أنت الشاعر مفدي زكريا. فأجابها كيف عرفتيني ؟ فقالت : «لقد حفظنا أشعارك ورأيت صورتك في الكتب». فاستدار إلي وقال لي هامسا : «أنا أحاول أن أخفي نفسي من العيون، وهذه فتاة صغيرة من الجزائر تعرفني». ثم من ضمن الأسئلة التي سألته هو : «كم سنك الآن» ؟

فأجابها : «سني 35 سنة». فقلت له : «هذا هو سنك الحقيقي»؟

- «هذا هو سني العملي، فأنا أحس أنني قادر على القيام بالأعمال التي يقوم بها صاحب هذا السن، ومن مشروعاتي التي أعمل جاهدا لتنفيذها المركب الثقافي الذي سأنجزه بمدينة الدار البيضاء بالمغرب، وسيكون آية في الإبداع. ويحتوي على عشرات الهكتارات، يضم دار الثقافة، ومسرحا، وقاعات للسينما وغيرها، والتجهيزات تامة، وقد اتفقت مع شركة ألمانية لتنفيذ المشروع وسأبدأ العمل في أول سبتمبر الآتي.

ثم هناك من - جملة مشاريعي - مشروع هام، وهو خلق أغنية جديدة على نطاق العالم العربي، تتماشى مع العصر، ومع طموحات المناضلين، وتتغذى من أصالتنا وتراثنا، وانحطاط أغنيتنا الآن وغيابها، كارثة لا مثيل لها. وقد بدأت في اختيار العناوين، وإني أفكر في الملحنين الذين هم في المستوى المطلوب ثم في المغنيين، وابتداءا من الأغنية الصادقة والملهمة، يمكن أن تكون عندنا نهضة حقيقية، وقد قيل في المثل قديما دعني أضع للبلاد أغانيها، ولا يهمني بعد ذلك من يجعل لها قوانينها، «وأمة ضيعت أغانيها، ضاعت هويتها، وأصبحت عرضة للمسخ والضياع».

كما حدثني عن مشروعه الذي ينوي القيام به قريبا وهو كتاب عن تاريخ ميزاب السياسي بنظرة جديدة، وكتاب عن النهضة الأدبية في المغرب العربي. قد اتفقنا معا على إصدار سلسلة من الكتب تعهد هو بنشرها وتحتوي على تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، وتاريخ الكفاح الوطني في المغرب العربي وعناوين أخرى لا أذكرها، وقد حددنا بدء العمل في ثالث رمضان 18 أوت للتخطيط وتحديد مهمة كل منا، وقدمت له بعض الأعمال كانت عندي ليطلع عليها. وهنا وصل الأخ شيبوب فذهبنا لنتجول على الشاطئ، ونستعيد بعض الذكريات. وفي هذه الأمسية بدأ الشيخ مفدي يحس بضيق في صدره أو في معدته لم يحدد موقع الآلام ولهذا قدمت له شيئا من الشيح في السيارة معي.

وأثناء حديثنا الطويل تنهد وقال : «إني أحس بشوق كبير لأبنائي، وأتمنى رؤيتهم الآن وضمهم إلي، وهذا الاحساس لم أعرفه من قبل، وإني أتساءل لماذا أمنع من دخول بلادي ؟ وأنا الذي غنيتها وعبدتها وضحيت بحياتي عدة مرات، وأني أعيش هنا مختفيا لأنني مطارد من وطني.

وقد عزمت أن أقوم، بمعارضتي لالياذتي التي لم أجن منها إلا النكران»، وقد اسمعني المقاطيع الأولى وكانت حادة.

مع مفدي في مطعم أبو نواس

ويوم السبت 13 أوت تقابلنا على العاشرة في المدينة وذهبنا إلى مقهى «البلفيدير» وكانت جلسة أدبية رائعة، تحدث لنا عن جولته في المشرق وعن معارفه الجدد في مصر ولبنان وسورية، وهنا بدأ يشكو من وجع في ناحية قلبه، وقد زار الطبيب، فأعطى له دواء ضد الغازات، وعلى الثانية عشرة ذهبنا إلى شاطئ «قمار» لنتغذى، ونتمتع

بنسيم البحر وأمواجه، وقد اختار لنا مطعم أبي نواس، وطلب من النادل أن يختار لنا ما يروق للشعراء، وكان الاختيار موفقا. وعلى الثالثة انتقلنا إلى الغابة وامتددنا على العشب تحت الظلال ونسيم البحر، وهنا عاود الشيخ الألم في قلبه واشتدت عليه الأوجاع فرجعنا إلى المدينة ليقوم بما يحتاج إليه من عناية.

وفي يوم الأحد 14 أوت وبالرغم من أوجاعه المتكررة سهرنا أيضا في حلق الوادي، إلا أنه لكثرة الألم افترقنا قبل الوقت المعتاد، وقررنا عدم المقابلة في الغد، واتفقنا على المقابلة يوم الثلاثاء 16 أوت الذي هو أول رمضان للفطور معا.

ويوم رمضان وبعد العصر كنت في انتظاره مع صديقه الحبيب شيبوب، ولكن شيبوب جاء وحده وكان منكمشا، فظننت أنّه الصيام ولا سيما وأننا في فصل الصيف، وقبل أن أسأله عن الشيخ وهل هو آت ؟ قال لي بصوت خافت، ضاع الشيخ فلم انتبه وظننت أنه يتحدث عن والده، فحاولت أن أعزيه وفطن بعد لاي، وأعاد علي الكلمة فكانت كالصاعقة لي ذهلت على إثرها ولم أعد أحس بشئ وشعرت بأن صرحا من الذكريات ومن البناءات الشامخة قد تحطم، وهكذا ضاع شاعرنا، وخسرنا كثيرا بضياعه.

وفي يوم 21 أوت، ودعنا جثمان شاعرنا العظيم على أرض المطار، بعد تأبين وزير الثقافة التونسي، وإلقاء قصيدة تأبين صديقه الحميم الحبيب شيبوب بعيون دامعة، وقلوب واجعة.

وفي الختام، فإن الشاعر مفدي زكريا كان رمزا للوطنية المتأججة ولوحدة المغرب العربي الكبير بثقله السياسي والأدبي والفني، وقد كان صاحب عبقرية فريدة، لو وجد البيئة المشجعة والجو الملائم، رحمه الله رحمة واسعة، وعوضه عن عقوقنا جناته الواسعة.

14

مع الشيخ عبد الحميد بن باديس

كنا في الزاوية الدرقاوية المنتسبة إلى الشيخ بن يلس، في الدروس القرآنية، نلتقط أخبار ابن باديس ونحصل على بعض أخبار جريدته الشهاب قبل أن تصبح مجلة في الثلاثينيات. كما كنا نحصل في بعض المرات على حديث من أحاديثه إلى أن زار مدينة تلمسان في شهر جوان 1932 بعد المؤتمر الثاني لجمعية العلماء وقد اصطحب معه من مدينة وهران الشيخ الطيب المهاجي. وقد حاول أن يلقي درسا في الجامع الأعظم ولكن منع من الإدارة. وكان في بلدية تلمسان بعض الشبان الذين أخذوا على عاتقهم أن ينظموا له في قاعة البلدية للأفراح اجتماعا يليق بمقامه، وكان تحديا للإدارة، فنظفوا القاعة وفرشوها بالزرابي، وأصبحت كأنها مسجدا، ودخل الناس أفواجا حتى لم يبق في القاعة مكان. وانتصب الشيخ بن باديس فوق المنصة وبجانبه الشيخ الطيب المهاجي الذي قدمه بكلمات لطيفة بدأها بقوله: «أهنئكم، وأهنئ نفسي وأهنئ الشيخ عبد الحميد على هذا الحفل البهيج» وزاد في التعريف به والحديث عنه، ثم قام الأستاذ ابن باديس بنبرته الحادة وأسلوبه الشيق وشرع في شرح حديث شريف يتكون من ثلاث

كلمات كانت كأنها شعار لنهضة كانت في طريق الانفجار، ونطق بالحديث الشريف الذي لم يتطلب وقتا لحفظه وترتيله : «تعلموا !! تحابّوا !! تسامحوا !!»

وصال وجال في شرح هذه الكلمات الثلاث، التي تعد اليوم برنامجا وطريقا واضحا للخروج من أزمتنا الحالية.

وبعد هذا بأسبوعين أو ثلاثة كان المولد النبوي، وكانت مناسبة لجمعية «أحباب الكتاب» للإعلان عن مظاهرة داخل المسجد الأعظم. ودخل الناس كلهم بالقوة رغم احتجاج الإمام والمؤذن وبعض العملاء. وبدأ الجمع بإلقاء الشاب مصطفى بلخوجة لحياة الرسول الأعظم بأسلوب جديد وروح شفافة وبعده قام الشاب الحاج باغلي وألقى قصيدة للأستاذ مصطفى بن يلس وفيها :

ألا يا قوم ويحكم استفيقوا
فقد بزغت شموس العالمينا

ثم طلع المنصة مولاي الحسن البغدادي فارتجل درسا في قوله تعالى: «... وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها...» وفي الختام وزع على الحاضرين علبة صغيرة تضم ثلاث حبات من الحلوى، ومعها ورقة صغيرة مكتوب عليها هذا الحديث الشريف : «تعلموا... تحابوا... تسامحوا...»

وكانت لحظة من أمتع اللحظات تعانقت فيها القلوب والأرواح، وتغافر الناس كالأعياد وخرجوا والبِشر يعلو وجوههم، والأمل يغمر مشاعرهم، لأن إقامة حفلة في المسجد يعد انتصار على الإدارة الاستعمارية وعملائها، ولأنهم وللمرة الأولى رأوا شبابهم يقوم بعمل جماعي جدي.

وقد كانت هذه الحفلة بمثابة انطلاقة جديدة لعهد جديد.

ودخلت يوما إلى مقصورة الشيخ البشير الإبراهيمي على حين غفلة قبل نهاية «دار الحديث»، فوجدت جماعة من العلماء يتوسطهم الشيخ ابن باديس وأخذت مكانا عند الباب، وبدأت أنصت لأحاديثهم. فكان أن سمعت الشيخ بن باديس بصوته المتهدج ونبرته الحادة يقول: «إن الأفكار الجديدة والكتب الصادرة في أوروبا وغيرها لا تصلنا إلا بعد سنوات لأن الترجمة قليلة والمواصلات لا تفي بالحاجة، وهنا ضعف من ناحيتنا يجب أن نتداركه ونتعرف على كل ما يصدر في الخارج وما ينشر».

وبعد رجوع وفد المؤتمر من فرنسا خرج الوفد الذي كان يضم النواب والعلماء والشيوعيون إلى القيام بجولة إعلامية عن سفرهم إلى فرنسا ووصل إلى تلمسان وكان من المفروض أن يحضر مصالي رئيس نجم الشمال الإفريقي ويقول كلمته ولكن لم يتمكن من الوصول في الوقت المناسب. وهكذا طلبت زوجته الكلمة نيابة عنه واحتجت باسمه عن مطلب إلحاق الجزائر بفرنسا، وبعد فض الاجتماع نزلوا إلى محطة القطار ليزوروا مدينة سيدي بلعباس. وفي محطة القطار بتلمسان تقابلنا مع الشيخ عبد الحميد بن باديس وطلبنا منه بعض التفسيرات حول الكلمة التي روجها الشيوعيين باسمه وهي «الشيوعية خميرة الشعب» فأجابنا بأن سياستنا تتلخص في أن «عدونا صديقنا». فقلنا له إن هذا ليس موقفا سياسيا صريحا والواجب أنكم تكونون بجانب الوطنيين. فأجابنا «بأنكم مجانين وأنا لا أتحدث مع المجانين، هل يمكن أو يعقل أن تخرج فرنسا من الجزائر فهذا جنون، لا يقبله أي عاقل» وودعناه وانصرفنا متأسفين.

وفي آخر سبتمبر 1937 بعد رجوعه من تلمسان بعد الاحتفال بافتتاح دار الحديث تقابل معه وفد من حزب الشعب الجزائري ضم الأخ كحال أرزقي مسؤول الحزب آنذاك ومحمد قنانش مساعده. وكانت المقابلة في نزل قصر الشتاء. وبعد تحليل الحياة السياسية صرح الشيخ على إثرها بأنه يتوق إلى استقلال الجزائر، وأن تجربة الجبهة الشعبية كانت أحسن درس لنا. واتفق الطرفان على أن يلتزم حزب الشعب وجمعية العلماء بإعطاء التعاليم الخاصة لوقف الانتقادات، وللتّقارب فيما بين المنظمتين، واتفقنا على أن نبقى دائما في اتصال.

وفي أوائل أكتوبر 1939 والحرب العالمية في أوجها وهتلر يتقدم ويتوعد، زار الشيخ عبد الحميد بن باديس تلمسان على حين غفلة صباحا ولم يبق فيها سوى ساعتين أو ثلاث ثم رجع في القطار قبل الثانية عشرة وسمع مصالي الحاج الذي كان في تلمسان منذ أسبوعين بعدما خرج من السجن وطلب مني أن افتش عنه وانظم له حديثا معه ولكن للأسف وجدته قد رجع ولم يتصل إلا بالشيخ الإبراهيمي، ولم نتمكن من رؤيته والحديث معه. وبعد أشهر قلائل لقي ربه مأسوفا عليه رحمه الله رحمة واسعة.

15

الأمير خالد، رجل الشهامة العربية

حضرات السادة والسيدات ؛ إخواني الكرام !

إنها لبادرة طيبة، وسنة حسنة سنها المجلس الشعبي لمدينة معسكر، بإقامة أسبوع ثقافي بمناسبة أعياد «قطف العنب» إحياء لماضي المدينة المجيد، وبعثا للثقافة الوطنية في هذه الربوع التي طالما كانت مرتعا خصبا للآداب والعلوم والأعمال.

وقد تشرفت بهذه المناسبة بأن ألقي على مسامعكم هذه الكلمة المتواضعة، مساهمة مني في مشاركتكم هذه الأفراح التي تدل على حيوية الشعب ونشاطه.

وقد اخترت الحديث عن رجل انبثقت أصوله من هذه الديار ولعبت عائلته أدواراً عظيمة في السياسة والأدب والإدارة ومثل هو نفسه دورا هاما في فجر النهضة الجزائرية الحديثة. وعنوان هذه الكلمة «الأمير خالد، رجل الشهامة العربية». وحينما نتحدث عن الشهامة العربية نتحدث عن خصلة انقرض أصحابها واختفت معناها، وكان آخر ممثليها صاحب الترجمة : الأمير.

وإذا كنا نحب اسم الأمير خالد، ونطرب لسماعه، إلا أننا نجهل عنه كل شيء، ولم ندرس حتى الآن حياته وعصره كما يجب لنستخلص العبرة من حياته، ونقدم لأبنائنا مثالا يفخرون به

ويحتذون حذوه، وقد اسدل النسيان عليه رداءه أو كاد كشأن رجالنا وأعمالنا، لولا أن قام الدكتور سعد الله في أول هذه السنة بإلقاء محاضرة حوله في الجامعة، ثم نشر الأستاذ محفوظ قداش بحثا قيما عن حياته بمجلة تاريخ وحضارة المغرب لكلية الآداب بالجزائر، العدد الرابع، وللأستاذ شكرنا الخالص. وقبل أن نتكلم عن مواقف الشهامة التي وقفها الأمير خالد يجدر بنا أن نتعرف على حياته وتطورها باختصار.

هو خالد بن الهاشمي بن الحاج عبد الكبير، اشتهر بلقب الأمير خالد، وهو حفيد الأمير عبد القادر بن محي الدين.

ولد بدمشق في 20 فبراير 1857 ودرس بها المرحلة الابتدائية ثم جاء به أبوه إلى الجزائر عام 1892. وقد أرسل إلى ثانوية «لويس لوفران» بباريس ثم التحق بكلية «سان سير» الحربية في سنة 1893 وعاد إلى الجزائر سنة 1895 قبل إتمام دراسته. وارغمته الإدارة الفرنسية بالجزائر على الإقامة الإجبارية في مدينة «بوسعادة» لتحول دون هرب أسرته. ثم رجع ثانية إلى مدرسة «سان سير» فأتمّ دراسته، وأدى واجباته العسكرية في المغرب، وارتقى إلى رتبة قبطان، إلا أن المشير «ليوطي» لم يكن ليطمئن إليه، واعتبره كعنصر شغب واضطراب.

وابتداء من سنة 1913 تبدأ مرحلته الأولى ويبرز فيها كأعظم شخصية في الحركة الوطنية الجزائرية الفتية، فألقى عدة محاضرات في باريس أشاد فيها بمجد العروبة وأرض الأجداد.

وكانت الفضائل والمزايا التي يتحلى بها الأمير من ثقافة واسعة ومعرفة باللّغة الفرنسية، ومن نسب شريف وشجاعة وإقدام تؤهله

لتزعم تلك الحركة. وعند إعلان الحرب العالمية الأولى تطوع خالد فيها. وكانت سيرته محل شك الإدارة الفرنسية بالجزائر، ثم عاد إلى البلاد عام 1915 وأعفي من كل خدمة عسكرية لإصابته بمرض ونال التقاعد عام 1919. وهنا نصل إلى الطور المهم من حياته وهو طور النضال السياسي، وتشمل هذه الفترة ما بين 1919 إلى 1925 يعني إلى منفاه نهائيا من أرض الآباء والأجداد.

وتمتد المرحلة الأولى من 1919 إلى 1921. ونذكر أن هذه الفترة كانت عامرة بالأحداث الكبرى، منها انعقاد مؤتمر الصلح بباريس وحركة الكومنترن في فرنسا والمستعمرات بعد نجاح الثورة الشيوعية وحركة عم الأمير «عبد الملك» الذي كان ما يزال ثائرا بالمغرب ضد فرنسا، ثم اصلاحات 4 فبراير فيما يخص الانتخابات. ويقال إن الأمير قد بدأ نشاطه السياسي بتحرير عريضة إلى الرئيس ويلسون قد بعثت الأمل في المستعمَرين، وحاول كل واحد أن يغتنم هذه الفرصة، وقد نادى في هذه الفترة ببرنامج إصلاحي قائم على فكرة المساواة بين الجزائريين والفرنسيين.

وتقدم إلى الانتخابات البلدية الأولى بمدينة الجزائر، وأخذت هذه الانتخابات طابعا سياسيا وطنيا. فقد كانت هناك قائمتان ضده تمثلان دعاة التجنيس. كانت مسألة الشخصية الإسلامية هي شغله الشاغل. وتقدم بصفته حامي الدين والمدافع عن الأخلاق الإسلامية. وكانت الكلمة التي يتحدى بها المتجنسين نفس الكلمة التي كان يتحدى بها جده الأمير عبد القادر «بيجو» واضرابه وهو قوله تعالى «والسلام على من اتبع الهدى». ولم يكن يتردد في التذكير بكفاح الأمير عبد القادر، إذ كان يقول لهم : «لا تنسوا أن آباءكم قد هبوا للنضال لأول إشارة من جدي الكريم».

وانتصرت قائمة الأمير خالد، وكان فوزا باهرا لأنصار الشخصية الإسلامية الجزائرية.

أما المرحلة الثانية وتبدأ من 1922 حينما أسس جمعية «الأخوة الجزائرية». وتولى إدارة جريدة الإقدام بنفسه، ثم بدأ يطوف في البلاد ويلقي المحاضرات والخطب السياسية، ويحث الناس على تأسيس النوادي، ولا زلت أذكر الصدى الذي تركته زيارته إلى تلمسان عام 1922 واحتفال جمعية الشبيبة به وكانت أول من قام بالتعليم العصري، ولا زال الناس في تلمسان يرددون أول نشيد وطني يقال إنه قدمه لهم الأمير وعنوانه : «هيا بنا أهل الوطن».

وفي هذه السنة زار الجزائر رئيس الجمهورية الفرنسية «مليران» وألقى الأمير أمامه خطابا هاما، ولكن رد الرئيس الفرنسي كان فاترا وكان خيبة لآمال الجزائريين.

وقد تضايق المعمرون من نشاطه المتواصل، ومن مقالاته في جريدة الإقدام وبدأت المؤامرات تحاك ضده من أعدائه وحتى من خصومه الذين لم يتورعوا عن رميه بالتعصب والحماقة والطيش. وفي هذه السنة أعلن مجلس رؤساء العمالات إلغاء الانتخابات وعدم كفاءة مرشحي أنصار الأمير خالد، كما حذفوا اسمه من قائمة الانتخابات ثم ضايقوه بعدة وسائل إلى أن اختار المنفى بدل البقاء في البلاد.

أما المرحلة الثالثة من هذا الطور فتمتاز باتجاه جديد ليس من حيث المضمون ولكن في الشكل. فقد قضى مدة بالاسكندرية بعدما خرج من الجزائر وعاد إلى باريس أوائل 1924. وبدأ يتصل بالعمال الجزائريين ويعقد المؤتمرات

الصحفية والمحاضرات، وزادت لهجته حدة ضد الإدارة والمعمرين. وقد كان الحزب الشيوعي في هذا الوقت قائما بنشاط كبير لإعانة الحركات الوطنية والتحررية. وهكذا استغل الأمير خالد هذه الفرصة ليسمع صوت الجزائر على الصعيد العالمي. وشارك في الاتحاد العالمي للعمال، وقبل الترشيح عام 1924 في قائمة شيوعية، ولكن مناصرة الديمقراطيين للقضية الجزائرية ظلت ضعيفة. وفي 1924 شهدت فرنسا فوز «الكارتيل دو ڤوش»، في الانتخابات التشريعية.

وبهذه المناسبة بعث الأمير خالد إلى رئيس الحكومة الجديد برقية تهنئة ورسالة ضمنها مطالب الجزائر، وسميت بالمطالب العشر، وختم هذه الرسالة بقوله للسيد هيريو: «إن هذه المطالب لا تتناقض مع البرنامج الليبرالي لوزارتكم ولحزبكم.»

وهاهي المطالب العشر بالتفصيل :

1) تمثيل الجزائر في المجلس الوطني الفرنسي بنسبة متساوية لنسبة عدد المعمرين.
2) إلغاء كامل للقوانين الاستثنائية والإجراءات المتخذة خاصة ضد الجزائريين، وإلغاء المحاكم الأجنبية، والمحاكم الرادعة.
3) المساواة في المسؤوليات والحقوق مع الفرنسيين بخصوص الخدمة العسكرية.
4) دخول الجزائريين إلى كل المراتب المدنية والعسكرية.
5) تطبيق قانون التعليم الإجباري وحرية التعليم.
6) حرية الصحافة والاجتماع.

7) فصل الإسلام عن الدولة الفرنسية.
8) العفو العام.
9) تطبيق القوانين الاجتماعية والعمالية الفرنسية على الجزائر.
10) الحرية المطلقة للجزائريين للعمل في فرنسا.

أما سنة 1925 فتعتبر آخر سنة لنشاطات الأمير السياسية، فقد شددوا الخناق عليه، وربطوا إسمه بثورة الأمير عبد الكريم الخطابي، واتهموه بأن له يدا في بعثة زارت الجزائر سنة 1924 واعتقل أعضاؤها، وهي تعرف ببعثة «الريفي» التي اتهمها الفرنسيون حينذاك بأنها كانت تريد تكوين جمهورية جزائرية بروليتارية، وتريد إحداث ثورة بالجزائر على غرار ثورة الأمير عبد الكريم الخطابي.

وفي شهر أوت من هذه السنة ألقت عليه الشرطة المصرية القبض وهو في طريقه إلى «بورسعيد» بحجة أنه لم يكن لديه جواز سفر رسمي وسلم إلى القنصل الفرنسي بالاسكندرية الذي أقام محكمة حاكمت الأمير وحكمت عليه بسته أشهر سجنا.

كل هذه الاضطهادات والمؤامرات والتزويرات جعلته يعتزل الميدان السياسي محتفظا بكرامته، وقلبه مطمئن إلى أنه قام بواجبه الوطني، ورجع إلى سوريا موئل عائلته وبقي فيها إلى أن أدركته المنية أوائل 1936 فبكته الجزائر ورثاه أدباؤها وشخصياتها في تقدير وإجلال.

وتساءل الباحثون عن هذه الفترة من حياته التي بقيت غامضة وفسروها كل بحسب هواه، ولكننا ندرك جيدا أن الجزائر لم تحرك

ساكنا نحوه طوال هذه الفترة وأن أصحابه قد تشتتوا ولعبت ببعضهم المطامع والأهواء وأن الزمان قد تطور، وتطورت معه المفاهيم السياسية.

وهكذا ندرك كلمته الأخيرة التي قالها لأحد الجزائريين وقد زاره في آخر أيامه: «إن الجزائريين في حاجة إليك أيها الأمير». فأجابه بشدة ومرارة: «لا تقل هذا يا بني، فالجزائريون يَخْصوّا فُحُولَهُم».

وفي هذه الكلمة ما فيها من مرارة التجربة وصدق الحكم.

والآن بعد هذا العرض الموجز لحياة عامرة بالأعمال والأحداث نشير إلى بعض المواقف التي تظهر فيها الشهامة العربية واضحة فنقول : لقد كان الأمير شهما حينما وجد الفراغ القاتل في أرض آبائه وأجداده فسدده بشجاعته وإقدامه.

وكان شهما كذلك حينما اختار أن يقوم بكفاحه على أرض الوطن وبجانب الشعب الجزائري.

وكان شهما حينما رشح نفسه في قائمة المحافظين ووقف معهم ضد التجنيس وضد المتجنسين.

وكان شهما حينما استقال من جميع مناصبه : من البلدية والعمالة والمالية ليبرهن على أنه لا يطلب المناصب لنفسه بل لأجل قضية وطنية.

وكان شهما كذلك حينما اعتزل السياسة وترك الميدان لغيره بعدما قام بتجربته.

وكان شهما أيضا حينما حكم على شعبه حكما قاسيا بكلمته الأخيرة لتكون درسا يستفيد منه الشعب في مسيرته نحو

الحرية، وأن النجاح حليف المتضامنين! وأخيرا ما هي الخلاصة التي نخرج بها من هذا الحديث، وما هي العبرة التي نستخلصها، أو ما هو الدرس الذي نأخذه من جولتنا هذه؟ الحقيقة أن المسألة لا تحتاج إلى تفكير طويل، وقد علمتنا التجارب أن نكون صرحاء حتى مع أنفسنا، فوطننا هذا «موطن المعجزات» وهكذا لا يماري فيه إنسان بشرط أن نتوجه نحو البناء والتشييد والأعمال الجبارة، وأنه في نفس الوقت وبكل أسف مرتع التحطيم والتخريب إذا ضعفت العزائم واستولى عليها الوهن. فلنسر جميعا في طريق المعجزات، ولكم في المجلس الشعبي بهذه المدينة خير مثال. ووفقنا الله وإياكم.

16

نشيد الأمير خالد

هذا أول نشيد وصل إلى تلمسان بواسطة الأمير خالد عند زيارته لها في سنة 1922 وشارك في مظاهرات ماي 1945 وعنوانه: هيا بنا

هَيَّا بِنَا أَهْلَ الوَطَنْ * نُحيِ الفَرَائضَ وَالسُّنَنْ
فَالسَّعْدُ فِي هَذَا الزَّمَنْ * بِالاجْتِهَادِ مَعَ المِنَنْ

هَيَّا بنَا. هَيَّا بِنَا * نُعْلي دِيَارَ جُدُودِنَا
وَنُحَامِي عَنْ أَوْطَانِنَا * بِالفِعْلِ وَالقَوْلِ الحَسَنْ

هَيَّا بِنَا زَادَ العَنَا * وَالجَهْلُ أَصْبَحَ دَيْدَنَا
وَالعِلْمُ ضَاعَ فَلَيْتَنَا * مِتْنَا فَقَدْ ضَاعَتِ الفِطَنْ

سُبْلَ الهَوَى لاتَسْلُكُوا * وَدِينَكُمْ لاَ تَتْرُكُوا
وَعِزَّكُمْ فَاسْتَدْرِكُوا * وَلاَتُبَالُوا بِالمِحَنْ

رِجَاؤُنَا فِي عَصْرِكُمْ * تَكُونُوا مِثْلَ غَيْرِكُمْ
تَسْتَرْجِعُوا لِمَجْدِكُمْ * مَجْدَ الآبَاءِ المُسْتَكِنْ

أَلَسْتُمْ ابْـنَ رِجَـالْ * أَلَسْتُمْ فَـرْعَ الْكَمَـالْ
بِالْمَـالِ تُـهْدَمُ الْجِبَالْ * كَذَلِكَ الْجَهْلُ يُحَـالْ
يَا رَبِّـي يَا نِعْمَ اللَّطِيفْ * عُدْ بِيَقْظَةِ الشَّرْعِ الشَّرِيفْ
بِالْخَيْرِ وَالْفَضْلِ الْمُنِيفْ * أَصْلِحْ لَنَا أَهْلَ الزَّمَـنْ

هذه الأبيات الشعرية سجل بها أحد العمال المناضلين، خطاب الشيخ عبد الحميد بن باديس بتلمسان، وهو الأخ محمد بوحجر الذي كان يعمل في النسيج، وقد كان درقاويا ثم إصلاحيا ثم شيوعيا وأخيرا وطنيا.

تعلموا تحابوا تسامحوا * جاءت لنا بداية ومفتاحُ
رويناها عن الأستاذ الأعظم * ابن باديس الرجلَ الأكرم
شرفت به بلدة تمسان * يوم أحد من صفر يا اخوان
قل فيا لها من ليلة تلك الليلة * ذكر المسلمين فيها بالأخوه
وبيّن قصد الكلمة الأولى * وهي تعلموا أني في الدين الأعلى
تفقها باحكام الأصول * كتاب الله وسنة الرسول
وبعدها تكلم في المحبّة * وقال الأصل فيها التحية
تحيٍّ - قال - كل من لقيته * فمن عرفته ومن لم تعرفه
انما يكون مسلما كبيرا * حرا، مملوكا، والا صغيرا
تُسمعه لفظة السلام * مع البشاشة والاحترام
ثم الكلام صار في تسامحو * بينكم أبواب الخير تُفتح
وأحسن إلى من أساء إليكا * عسى الإله في غد يُجازيكا
أيا اباء البلدة المذكورة * اعملوا بمقتضى هذي الصورة
تجنوا بها ثمرة الاتحاد * وتشرعوا حينا في الاجتهاد
وتخلوا من التفريق كله * بين حضري وقورغلي وبدوه

إلا الإسلام في الذات الوحيد * إذا اشتكى عضو تبتْ مُبيده
يا اخواني يا سادتي تيقظوا * واصلحوا القلوب بعدما مرضوا
اصلاحها لزوم للطاعات * مع الذكر في سائر الأوقات
يا ربنا يا عالم السرائر * فانرنا يا إله على الكوافر
بجاه من اتانا بالقرآن * محمد الهاشم العدناني
صلِّ عليه يا اله العالمين * ما دامت السماوات والأرضين

قصيد للشاعر الشعبي محمد بوحجر أثناء زيارة مصالي الحاج لتلمسان 1936

بشراك يا تلمسان إذ حياك
زعيم منك اسمه مصالي حاج
قد أتاك ابنك الناشئ فيك
الملهم السالك أقوم منهاج
فزينة ووقار وفخامة لك
إذ زادك على حسنك ابتهاج
يا أيها الشعب الكريم التلمساني فاحك
ما قاس فكرك الجدير الصبور من رواج
ويا أيها الشعب الجزائري فاشكي
ما أنت فيه من ضيق وحرج
تجد المساعدة في حزبك الذكي
المخصوص بالحرية المنزه عم الاندماج
نجم الشمال الإفريقي فهو لك
حصن الحياة الحرة وسلم المعراج
فادخلي فيه أيتها الأمة ولا تسلكي
سبيلا غيره ودع اللجاج

فالحزب أنت أيتها الأمة وما أراك
ما الحزب إن كان العلم لك سراج
فعلمنا نور ومن أمر المدرك
أن نحيا ونحي ونخرج من الداج
والأمر ميسور إذا الإله حباك
فهديك باق قرآنا عربيا غير ذي عوج
والسنة محفوظة فلتشقى أعداك
قائلين بأن ليس لمرادك علاج
فالعلاج نضال وطاعة لحزبك
ونحن رجال لا نرضى أن نساق كالنعاج
فلتكن الحرية دائما شعارك
ولا تبالي بالرعاع الهماج
فتعلمي وتنظمي وكافحي وحدك
ولا تترك دينك الصحيح لا طريقة الحلاج
فلا بد إن كان قيما قلناه سعيك
أن تنجح ويمددك الإله بفرج

17

الشاعر الكبير محمد العيد آل خليفة
... لقاء وذكريات

كان أول لقائي مع شاعرنا الكبير - منذ خمسين عاما - في قاعة «الماجستيك» بباب الوادي، وفي الاجتماع السنوي لجمعية العلماء 1937.

وقد ألقى بهذه المناسبة - وكعادته في اجتماعات الجمعية - قصيدة رائعة في مضمونها، وفي أسلوب إلقائها. وقد استهلها كما يلي:

استوح شعرك من حنايا الاضلع
واستجل في القسمات حس المطلع

وكانت طويلة النفس، تدل على باع طويل في نسيج القصائد، وتمكين محكم من صياغة القوافي.

وأذكر أني ذهلت عند سماعها، وأحسست بسلاسة البهاء زهير كما شبهه الأمير شكيب أرسلان.

وقد بكى من شدة التأثر، واستبكى الحاضرين، وكنت من جملتهم. وقد راع انتباهي وقتئذ بيت جمع فيه ستة أفعال أمر، وستة أجوبة.

اسأل اجب، وامر اطع، واصرح اغث
واصفح انب، واسمع اقل، وانصح اع

لقد كان محمد العيد لسان الحركة الإصلاحية، ينافح عن جمعية العلماء، وعن مبادئها، وعن شخصياتها، حتى أنه حين اختلف الشيخ العقبي عن غيره من العلماء نظم هذين البيتين.

شيخان، فيما يفيد الأمة اختلفا
إيـاك أن تظلم الشيخين اياكا
كلاهما في سبيل الله مجتهد
فلا تلومن لا هذا. ولا ذاكا

وقد اتسم بالوفاء، والسماحة طول حياته، كما أن مفدي زكريا كان اللسان الناطق للحركة الوطنية الثورية إلى الأربعينيات، ونشيده الوطني الأول : فداء الجزائر، نوفمبر 1936، ونشيد اعصفي يا رياح، بربروس 1937 الذي كان النشيد الرسمي للسجناء، وقد تحول أثناء الثورة إلى نشيد المحكوم عليهم بالإعدام... حتى أصبح رمزا للوطنية.

والعجيب أن الشاعر محمد العيد شارك في الحركة الوطنية السياسية في مطلع الخمسينيات، واشعاره في هذه الفترة كانت أكثر ثورية، وأصبح من أسرة جريدة المنار ذات الصبغة الوطنية، وقد اتحف الجريدة بيتين من شعره الرصين، أصبحتا شعارا لها، ابتداء من عددها العاشر وسجلتا تحت العنوان وهما :

طوينا للمطالب كل بحر
طمى، وبدت معالمها الكبار
فحيتنا الشواطئ من بعيد
واوما بالشعاع لنا المنار

وكانت خليته في الحزب تضم الشيخ بلقاسم البيضاوي، والشيخ بلعابد وقد اعتقل الثلاثة في وقت واحد. بينما أصبح الشاعر مفدي زكريا أثناء الخمسينيات يأيد حركة الإصلاح وقصيدته في افتتاح دار الطلبة لا تحتاج إلى تفسير.

وكانت هذه الثنائية معروفة بين الشعراء في المشرق. ففي مصر كان شوقي وحافظ، لا يذكر واحد دون الآخر، ثم أن شوقي بدأ مقلدا، وانتهى مجددا، بخلاف حافظ الذي بدأ مجددا وانتهى مقلدا، وفي العراق كان الزهاوي والرصافي وبينهما حساسية كبيرة. أما في الجزائر فإلى الآن لم نطلع على ما كان بين زكريا ومحمد العيد من التنافس والحساسية. وقد شاركا معا في مؤتمرات «طلبة شمال افريقيا» بالعاصمة وتلمسان بشعرهما، كما شاركا معا في تأبين حافظ وشوقي بالعاصمة وتأبين الشابي بتلمسان وأنا أعرف شخصيا أن مفدي كانت له حساسية ساعدته على أن يجتهد أكثر ويأتي بالمعجزات، ولا أظن أن محمد العيد كان يحاول منافسته، لأنه كان أكثر قناعة، وكانت فيه نزعة صوفية يعيشها وإن لم يتحدث عنها.

أذكر أنه في سنة 1937، حينما كنا في مهمة بتونس الشقيقة، حاول الأستاذ المنجي سليم، كعادته، أن يثير حساسية مفدي زكريا في مجموعة من الأدباء حين قال له : «إن محمد العيد أشعر منك»، وقد ذكره بقصيدته التي القاها بنادي الترقي في مؤتمر الطلبة سنة 1932 وقرأ البيت الأول مستفزا مفدي

على منبر النادي، أحيي بني نادي
لتستمع الدنيا روائع إنشادي

فما كان من مفدي إلا أن يرد على هذا التحدي وكأنه لم يقصد الإجابة، أو يعني شخصا بعينه، بقوله : «من لم يقطع عتبة بيته، ولم يشرب من غير كأسه، ولم يقرب غير زوجته، فليس بشاعر».

وأثناء وجودنا سويا في بربروس في شهر مارس 1938، بدأت أتعلم عنه صناعة الشعر، وكان يقدم لي البيتين لتشطيرهما ثم نتطرق إلى الحديث عن الشعر والشعراء، وقد ذكر لي كيف كان يشجع رمضان حمود وبلقاسم الشابي في ابتدائهما، وأثناء حديثنا عن محمد العيد قال لي بعد خروجنا من السجن : «يمكنك أن تثير بيني وبين محمد العيد مساجلات أو منافسات حتى يظهر من هو الشاعر المقتدر». ولم تدم هذه المحادثات لأنهم فرقونا في السجن فذهب هو والجماعة الأولى إلى الحراش، وبقينا نحن في بربروس.

وبعد الاستقلال، وبالضبط في أواخر سنة 1963، أسست لجنة «المطبوعات الوطنية» - التي أصبحت فيما بعد الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - وكان مديرها الأستاذ عيسى مسعودي، الذي كان مدير الإذاعة الوطنية بعد الاستقلال، وكان مشهوراً بحصصه الإذاعية وقت الثورة التي كانت تكهرب الجماهير، وكان رمزها : هنا صوت الثورة الجزائرية من أرض الجزائر.

وقد كلفت من طرف اللجنة بمهمة الاتصال بالأدباء والكتاب، وجمع ما يمكن أن ينشر، وكان انتقالي الأول عبر الوطن هو مدينة بسكرة النخيل والاتصال بالخصوص بالشاعر الكبير محمد العيد آل خليفة.

وصلت بسكرة يوم الجمعة 22 يناير 1964 صباحا بالطائرة، وكانت هذه المرة الأولى التي أزور فيها هذه الناحية، وأثناء

تجوالي في المدينة، دخلت مكتبة صغيرة، وفي حديثي مع صاحبها أخبرني بأن في طولقة توجد أكبر خزانة كتب في الشمال الإفريقي، وتحتوي على مخطوطات كثيرة. ومن هناك ذهبت إلى المعهد الإسلامي وحدثني مديره على خزانة طولقة، ونبهني إلى أن الأستاذ نعيم النعيمي تعرف على المكتبة، وهو حاليا بمدينة قسنطينة، وخرجت من المعهد إلى اتحادية الحزب وسألت عن طولقة، فتكلموا مع منسق الحزب هناك، وأخبروني بأنه بامكاني زيارته في الحال، فأخذت سيارة أجرة، ووصلت على الثانية عشرة وذهبت مع منسق القسمة السيد محمد الطاهر معمر إلى زاوية الشيخ علي بن عمر، المنتسبة إلى الرحمانية وقد وجدنا صاحب الخزانة السيد عبد الرحمن عثماني في انتظارنا والخزانة تضم ما يقرب من ثلاثة آلاف مخطوط، منها ما كتب على جلد الغزال.

وفي المساء قابلت الشيخ محمد بلعابد، في نزل صغير كان يقيم به، وكان في حالة يرثى لها، ويظهر أنه تأثر بالتعذيب الذي مر عليه حتى وقع له خلل في فكره. وحينما حدثته عن كتابته القديمة، اعتذر بأن أوراقه مشتتة ولا يمكن جمعها، ولا يرى نفعا في نشرها، ثم قابلت الشيخ بلقاسم البيضاوي، وقد كنت أعرفه من قبل، وطلبت منه أن يعيننا في جمع تراثنا المشتت.

ومن الغد، ذهبت إلى مدينة «باتنة» لمقابلة شاعرنا الكبير محمد العيد، وهي أمنية راودتني، ولكن حالت دون الوصول إليها ظروف خاصة لم تساعدنا على تحقيق تلك الأمنية، وقد ذهبت رأسا إلى اتحادية الحزب، ومن ثم رافقني أحد الإخوان، وفي الطريق التقيت بسيارة المعهد الإسلامي، وقد تعهد بنقلي في طريقه.

وشاعرنا يسكن في طرف المدينة، بحي المعسكر، بمدرسة البنين، وما ان اقتربت من باب المنزل حتى جاءني ابنه الصغير، وكان يلعب مع الصبيان، وبادرني بلغة فصيحة : «ماذا تريد أيها السيد» ؟ فأجبته بأني أريد مقابلة الأستاذ محمد العيد، وذكرت له إسمي. وخرج الشاعر في حلة بيضاء، ورائحة المسك تعبق منه، وبعد التحية والسلام ادخلني إلى بيت لا أثاث فيه إلا مطرحا مطروحا جانبا، وكان البرد قارسا، وشهر رمضان في عزته. بدأ يحدثني برقة ولطافة، وبرنة موسيقية تأسر الألباب، وحسبت نفسي أنني أمام شخصية عظيمة من رجال التصوف القدماء.

وأثناء الحديث عرضت عليه دعوة لزيارة العاصمة بغية الاحتفال به، ولكن اعتذر بصحته المتوعكة، وفي بعض حديثنا عن العاصمة، ذكر لي بيتين قالهما يوم زارها ووجد نفسه غريبا فيها.

ما في الجزائر مجلس الهي به نفسي
واستهوي إليه فؤادي
أمسيت لا منها، ولا من أهلها
والقوم قومي والبلاد بلاد

وكنت استدرجته من حديث إلى حديث، حتى استمتع بحديثه الممتع، وأخيرا تفتقت حيلتي ان طلبت منه حديثا عن حياته، فاجابني بلطفه المعتاد : «هذه المرة الأولى - بعد الاستقلال - التي اسمح فيها بالحديث عن حياتي وقد طلب مني المرات العديدة، وقد استقبلتك لانني اعرفك، وان لم نتقابل من قبل، فقد عرفتك بواسطة الأستاذ محمود بوزوزو وبمشاركتك في جريدة المنار. وعلى ذكر الأستاذ بوزوزو قد كانت بينه وبين محمد العيد

مساجلات شعرية سمعت بعضها من الأستاذ بوزوزو أخيرا. وأتمنى أن يوجد من يجمع هذه المساجلات وينشرها، وربما تلقى ضوءا جديدا على دور الاخوانيات في حياة الشاعر. وهكذا بدأ يقص علي حياته.

«أنا محمد العيد بن محمد علي آل خليفة، أصلي من وادي سوف. قرية «كويـنين»، عرش المحامد والمناصر، وأصلهم من طرابلس الغرب، جلوا منها إلى صحراء سوف، ووالدي نزح من هذه الصحراء إلى ناحية التل الجزائري، ويسكن في مدينة عين البيضاء وكون هنالك تجارة، وفتح الله عليه فأسس مسجدا.

ولدت بمدينة عين البيضاء في 27 جمادى الأولى سنة 1323 هـ 1904م. كنت رابع اخوتي ذكرين وأنثى، وفيها نشأت وتلقيت دروسي الابتدائية وذلك قبل الحرب العالمية الأولى، ثم انتقلت أسرتي إلى بسكرة النخيل، فدرست العلم في بعض مساجدها على بعض الشيوخ الأجلاء، وفي عام 1340 هـ 1921 م غادرت بسكرة إلى حاضرة تونس، حيث انخرطت في سلك جامع الزيتونة المعمور، مكثت في تونس عامين، ثم رجعت إلى بسكرة، فاشتغلت بمطالعة أمهات الكتب الأدبية، وكنت أكثر ولوعا بالأدب العربي شعرا ونثرا. فلما صدرت الصحف بالجزائر شاركت في أكثرها بنشر ما انتجت من قصائد، ولما أسس الشيخ الطيب العقبي جريدة الإصلاح التي كانت تصدر ببسكرة النخيل، ساهمت فيها بقسط وافر، ثم دعيت إلى عاصمة الجزائر من طرف جمعية الشبيبة الإسلامية الجزائرية فعملت بها اثني عشر عاما من سنة 1928 إلى 1939.

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية خرجت مع عائلتي إلى بسكرة، وقضيت بها نحو ثمانية شهور، ثم دعيت إلى مدينة باتنة

من طرف جمعية تعليمية، فمكثت بها ست سنين، ثم دعيت إلى عين مليلة لإدارة مدرستها التي تسمى مدرسة «العرفان» وبقيت بها ثماني سنوات.

وفي ابتداء الثورة، ألقت السلطة علي القبض، ورمت بي في سجن «الكدية» بقسنطينة، وبعد المحاكمة أطلق سراحي، وفرضت علي الإقامة الاجبارية. فمكثت في هذا الظرف الخانق ممنوعا علي أن أزور أو أن أزار، إلى نهاية الثورة، وفي هذه الأثناء كنت أكتب، واكتم ما اكتب».

- سؤال : كيف بدأت حياتك الأدبية ؟

- جواب : بدأت انظم الشعر في مواضيع مختلفة، ومنها الاخوانيات، وعمري سبعة عشر عاما، ثم لما جاءت الجرائد التونسية إلى الجزائر، كالصواب والعصر الجديد التي صدرت بصفاقس تحت إدارة الأستاذ أحمد المهيري وأرسلت له أول قصيدة وطالعها :

صفاقس نلت العز، منى لك البشرى
بعصر جديـد، فاز عن أعصر أخرى

ولما أصدر الأمير خالد جريدة الإقدام باللسانين، بعثت له بعدة قصائد، ثم شاركت في جريدة الإصلاح والصراط والشريعة والبصائر ووادي ميزاب والنور والمنار وغيرهم من الجرائد.

- ماهي طريقتكم في نظم الشعر ؟

- طريقتي أن أسجل كلما يجيش بخاطري في موضوع من الموضوعات، وربما بدأت بآخر القصيدة قبل أولها، وأفضل الوحدة لأنها تعينني على استجماع قواي، وتركيز فكري.

- ماهي نظرتكم إلى الشعر الجديد ؟
- لا أرى مانعا من أن يكون بجانب الشعر القديم محاولات جديدة، ولكن أنا سأبقى محافظا في الشعر.
- ماهي النصائح التي تسدونها إلى الشباب على وجه العموم وإلى الشعراء المبتدئين على وجه الخصوص ؟
- نصائحي هو توسيع الثقافة بكل أنواعها مع ملاحظة أن تكون سليمة من كل ما يعكر علينا صفوه، كما أوصيهم بهذه المناسبة بحفظ أشعار كثيرة لشعرائنا الجاهليين والمخضرمين والمولدين، وفي رأيي أنه لا يمكن أن تكون ملكة أدبية أصيلة إلا بهذا، مع حفظ الأشعار المحدثة كحافظ وشوقي ومحرم ومطران، والبارودي، والرصافي والزهادي والكاظمي، هؤلاء هم فحول الشعر.
- وأخيرا كيف ترون مستقبل الجزائر ؟
- أراه كما نحب لا كما يحب الغير، يعني عربيا إسلاميا ثقافيا، تقدميا.

وقد نشرت لي أبيات في مجلة المعرفة تحت عنوان يسألونني ويمكنك أن تنشرها من جديد مع كتابة الصدر الخامس هكذا :

ونشر الثقافات السليمة حرة، عوض ونشر المبادي والثقافة حرة وها هي القصيدة كما طلب أن تنشر.

يـسائلني عــن نسبــتي كــل وافد
علي، وعن شعري، وعن كنه مطلبي
فقلت لهـم: أرض العروبــة مــوطني
وديني هــوالاسلام، والقــدوة النبي

ومن مطلبي جمع العروبة كلها
على وحدة عظمى بشرق ومغرب

وتهيئة الجيل الجديد لفوزه
من الدين والدنيا باشرف مأرب

ونشر الثقافات السليمة حرة
وكسب المعالي لا لجاه ومنصب

رضعت قريضي، في لبان أمومتي
ومن مورد الأحرار واصلت مشربي

تسامحت والاسلام دين تسامح
وآمنت بالقرآن دون تعصب

إذا كنت في ديني وفي وطني أخا
فلست أبالي أن تخالف مذهبي

هذه محاولة محتشمة للحديث عن شاعر كبير،ساير الحركة الاصلاحية، وعايش الاحداث الوطنية، وترك بصماته الأدبية على الثقافة الجزائرية.

وأملي أن تكون كلمتي هذه مساهمة بسيطة في إحياء تراثنا الأدبي الذي بقي مغمورا، وأصبحت الأجيال الصاعدة لا تعرف شيئا عن تراثها وعظمائها. فرحم الله شاعرنا الكبير، والهمنا الرشد والوفاء لمبدعينا.

18

خواطر حول الأستاذ الفقيد أحمد توفيق المدني

هذه خواطر[1] حول الندوة التي أقيمت بقاعة «الموقار» بمناسبة مرور سنتين على وفاته وحول تساؤلات الأستاذ فخار في حديثه حول فكر الأستاذ المدني. والالغاز التي تحيق بالتناقضات التي تظهر على تفكيره.

يظهر لي أن فكر الأستاذ توفيق المدني السياسي له جذور إصلاحية، تبدأ بابن تيمية، وتمر بمحمد عبده ورشيد رضا، وتعرج على ليبرالية لطفي السيد، وتتأثر بالجو التقليدي للزيتونة، وللإصلاح السياسي الذي كان معروفا أثناء الحرب العالمية الأولى، والذي كان الحزب الحر الدستوري الذي كان ينتمي إليه الأستاذ توفيق يسير على نسقه، ولا يختلف عنه. أما أسلوبه في التعبير وفي السلوك، فقد كان ثوريا بالنسبة إلى الأوساط التي عايشها، وتأثر بتقاليدها ثقافيا وسياسيا.

أما بالنسبة إلى الفكر الثوري الذي ازدهر بعد الحرب العالمية الأولى، فلم يتأثر به كثيرا، وبقي اصلاحيا سياسيا متمردا على جمود وسطه، والذي كان يضم جماعة تقليديين بقوا متحجرين، لم يتأثروا بالأفكار الجديدة.

---

1. بمناسبة السنة الثالثة على وفاته. نشرت بجريدة المساء بتاريخ 22 أكتوبر 1986، وكانت وفاته في 18 – 10 – 1983.

لقد عايش الأستاذ المدني في تونس الوسط الارستقراطي الإصلاحي الليبرالي، وعايش في الجزائر العاصمة - ابتداء من سنة 1925 - سنة نفيه من تونس - الوسط الجزائري البورجوازي التقليدي، نادي الترقي، الذي شارك في تأسيسه، وكان الممثل الشرعي له، هذا النادي الذي كان يحتضن الإصلاح بشقيه : السياسي والديني، يعني النواب وجمعية العلماء.

وقد كان - رحمه الله - في كل مراحله، إصلاحيا ليبراليا، توفيقيا، يمثل الصحفي السياسي، المحلل للأحداث بأسلوب ثوري، وهو في سلوكه توفيقي. لا تهمه المبادئ، بقدر ما تهمه النتائج، فهو مرن، يتعامل مع التناقضات، بغير مركب نقص. وصبغته الصحفية النضالية طفت على الصفات الأخرى، ويتمتع بالخصال التي تؤهله لتمثيل الأدوار الديبلوماسية بلباقة وحذق قلما تتوفر لغيره.

وأظن أنه لم يجد مجالا واسعا لنشاطه ولمبادرته المتعددة إلا في المشرق العربي، فقد انسجم مع الجو الشرقي، وظهرت شخصيته أكثر ملائمة من الجو الجزائري أو التونسي.

وسأذكر على سبيل المثال بعض أحاديثي معه.

بعد أحداث ماي 1945 زرته بمكتبه - وكان أول اتصالي به -. وحين سألته عن رأيه في الأحداث، المؤلمة، أجابني بما يلي : «كنت أومن بالثورة قبل أحداث ماي 1945، ولكن الآن تغير موقفي، ولولا لطف الله الذي وجد على رأس الولاية العامة رجلا كالوالي العام «شاطينيو» لكانت الكارثة تكون افظع.

وحين كتبت سنة 1947 بمناسبة مرور خمسين سنة على وفاة جمال الدين الافغاني سلسلة مقالات «حول التوجيه السياسي في

المشرق العربي» وقرأتها عليه، أيدني، وكنت أظن أنه لا يستسيغها، لأنها تخالف اتجاهه.

ووجدت مرة على مكتبه كتاب من هنا نبدأ لخالد محمد خالد، وسألته عن رأيه، فأجابني، لو كانت لي القدرة على طبعه، لنشرته بالمجان ليطلع الناس عليه.

وقد زرته يوما وكان في طريقه إلى نادي الترقي، فاستصحبني معه - وكانت حفلة استقبال على شرف نادي تونسي لكرة القدم، وتكلم الشيخ العقبي ورئيس النادي التونسي، وبعدهما أخذ الكلمة الأستاذ أحمد توفيق المدني فصال وجال، وبهر الناس بفصاحته كعادته في مثل هذه المناسبات، وحين خرجنا سألته عن علاقته بالشيخ الطيب، ولماذا بقي متمسكا به، فأجابني بأن الحكومة تنوي إعطاءه الأوقاف، وهذا ما يسمح لي بانشاء تنظيم على مستوى الوطن يمكنه أن يلعب دورا سياسيا لاستقلال الوطن. وآخر مقابلة لي معه، كانت في منزله، وقد باغتني بقوله : «لم يوجد في الجزائر زعيم كمصالي الحاج»، فبهت وزاد : «إنه الوحيد الذي كان يقسم به الشعب. فإذا قال الجزائري، وحق مصالي، يمكنك أن تصدقه، ولم يقسم أحد بالشيخ ابن باديس أو غيره». وتذكرت ما قاله في مصالي فتعجبت.

كان في أحاديثه معي يفضي لي بأشياء كثيرة ومهمة، وكنت اتمنى تسجيلها، ولهذا كنت الح عليه في كتابة مذكراته، ولكنني حينما اطلعت على المذكرات خاب ظني لانني لم اجد فيها ما كنت انتظره.

لقد تحدثت عن الآثار التي تركها الأستاذ توفيق المدني في تكويني وتكوين جيلي كله الذي يدين له بالوطنية، في مقال كتبته

سنة 1946 في مجلة العبقرية بعنوان «حول كتاب المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا» ولا سبيل إلى إعادة نشره ولكنني سأنقل فقرة عن تصويري له آنذاك.

«إن الأستاذ أحمد توفيق المدني شخصية فذة في الشمال الافريقي، لا لكونه مؤرخا فقط، بل لكونه كاتبا أيضا، وإذا استحق هذين اللقبين فإنما استحقهما عن جدارة لأنه مؤرخ وكاتب بكل ما تحمل هاتان الكلمتان من معنى صحيح، فالمؤرخ في نظري هو الذي يجعل من الأخبار المشتتة صورا متناسقة، تاسر لبك وتستهويك، ويضفي على التاريخ حللا قشيبة تجعله يختال في زهو وافتخار، ويوجه إلى هدف قومي يجعل المطالع يشعر عند تصفحه بالعزة والنخوة القومية. والكاتب هو الذي يبعث من موضوعه روحا تملأ قلبك إحساسا وشعورا، ويتجلى لك في صورة حية، يخاطبك، ويقص عليك آماله وآلامه فترسم صورته في مخيلتك. ويصبح رائدك في أعمالك...» لا أدري إذا كنت موفقا في هذا الوصف العاطفي، ولكن في دخيلتي كنت صادقا، وكانت كتابته مثالا يحتذى.

ولكن ما يهمني الآن هو انقاذه لي من أزمة نفسية، استولت علي أوائل الحرب العالمية الثانية، حينما اعتقل المناضلون الوطنيون، وبقيت الساحة فارغة، لا تذكر كلمة الوطنية ولا الجزائر ولا التحرير، وغاب الذين يملؤون الشارع بالتشدق بالأفكار والنظريات، وأصبحت في حيرة من أمري، فكيف أسد هذا الفراغ الخانق ؟ وكان من لطف الله بي، ان هداني كتاب الجزائر الذي نشر في سنة 1931 وقرأته في وقفة ونسيته، وقد انقذني من هذه الأزمة، وأعاد لي توازني الذي ضاع مني.

وكنت مدينا للاستاذ أحمد توفيق المدني بهذا الدواء، وقد أخذت على نفسي آنذاك أن أدرس كتاب الجزائر إلى جماعة من الكشافة بتلمسان وجدوا فيه ضالتهم التي كانوا ينشدونها.

وقبل وفاته ببضعة أشهر، اجتمعت به في مكتب المؤسسة الوطنية للكتاب لتنفيذ ما قررته المؤسسة من إصدار أعماله الكاملة في ثوب أنيق وطبعة فاخرة، وقد سر بهذا القرار، وعهد إلي كاتب هذه الكلمات للقيام بهذه السلسلة، وبدأ العمل فورا بحضوره، ولكن تغير المسؤولين كان سببا في تجميد العملية، وإلى الآن لم تؤخذ أي مبادرة لبعث المشروع من جديد.

هذه خواطر وذكريات سجلتها من غير تنسيق عن أستاذنا الكبير أحمد توفيق المدني بمناسبة الذكرى الثالثة لوفاته، رحمه الله رحمة واسعة.

19

المناضل الوطني اكلي بانون

هذه شهادة مناضل مجهول عاش ما يقرب من نصف قرن في المهجر، فرنسا، وساير الحركات العمالية الدولية عن كثب، وساهم مساهمة فعالة في الحركة الوطنية الجزائرية، وكان أحد روادها الأوائل الذين عاشوا احداثها وسجنوا في سبيلها.

وكان سكناه - 19 نهج داقير- مركزا للحركة الوطنية عدة سنوات، ومن غريب الصدف أنه كان يسكن في الشقة التي كان يقيم فيها «لينين حينما كان في باريس، وقد كان الملاذ الوحيد للحزب حينما يقدم جريدة الأمة للطبع ولا يجد المال الكافي.

وقد شارك في المؤتمر الإسلامي الأوروبي بجنيف عام 1935 بجانب الأمير شكيب ارسلان، ودخل السجن عدة مرات. وقد توفي في الثمانينيات عن عمر يناهز التسعينات ودفن في عين البنيان. تغمده الله برحمته.

أكلي بانون يتحدث

ولدت بقرية «جبلة» دوار مزالة ولاية سطيف يوم 27 جوان 1889، لم أدخل الكتاب ولا المدرسة. بدأت راعيا ثم فلاحا شأن أبي وأجدادي. لم تكن عائلتي فقيرة بل كانت متوسطة، لها أرض ولها ما

يكفيها في معاشها طول السنة ولكن شظف العيش كان من نصيب الفلاحين كلهم. ولما بلغت الخامسة عشرة من عمري قبض علي من طرف حاكم الناحية واودعني السجن، ولم أنج إلا برشوة الحارس الذي ساعدني على الفرار.

وبقيت في قريتي تحت وطأة الحاكم وأعوانه ووطأة التقاليد القبلية والعائلية التي أصبحت تخلق جوا خانقا للشباب يدفعهم إلى الهجرة من الوطن أو إلى مخاطرة لا تحمد عقباها.

وهكذا ذهبت الى سيدي عيش بعد مشادة مع أحد أعمامي وتعاقدت مع الجيش للعمل في فرنسا في معامل السلاح (كونفويور) كما كانوا يقولون، ثم اشتغلت في معمل السكر ثم معمل رونو، وانتقلت من مرسيليا الى بروطان. وأخيرا استقر رحلي في باريس وقد اشتغلت فيها كخضار متجول بعد سنة 1927.

وفي سنة 1926 كان لي جار في السكن يدعى عمر جاوي من تمازير، يعمل في النقابة. استدعاني الى الاجتماع الذي وقع بنهج بروطان رقم 49 وذلك في 16 ماي. وفي هذا الاجتماع تأسس «نجم شمال إفريقيا» واختير له هذا الإسم. ولم أكن أعرف من الحضور الا السيد الجيلاني الذي رأيته مرة يخطب في اجتماع نقابي.

وفي 12 جوان عقد أول اجتماع عمومي في 163 نهج المستشفى، أعلن فيه عن إنشاء الحركة وعن اسمها.

وفي 2 جويلية عقد اجتماع عام للأعضاء بقاعة نهج قرانج أوبيل، وفيه تأسست اللجنة المركزية التي كانت تضم 30 عضوا أذكر منها هذه الأسماء:

الإسم	المهنة	المدينة	الانتساب
الرئيس : الحاج علي عبد القادر	تاجر	غليزان	شيوعي
الكاتب العام : مصالي الحاج	بائع متجول	تلمسان	
أمين المال : شابيلة الجيلاني	إصلاح المعارج	البليدة	شيوعي
سي الجيلاني محمد السعيد	عامل	الأربعانايت ايراثن	
أكلي بانون	عامل وخضار	سيدي عيش	
معروف محمد	مسؤول نقابي	الاصنام	نقابي
قدور فار	معطوب حرب	الاغواط	
سعدون	عامل	بني عباس	شيوعي
مقروش	عامل	بني عباس	
عبد الرحمن السبتي	طالب كتاب	العلمة أو الخروب	
ايت طودرت	معطوب حرب	عين الحمام	
ايفور محمد	معطوب عمل	الاربعانايت ايراثن	
قاندي صالح	عامل	بوسعادة	
رزقي	عامل	خنشلة	
بوطويل	مصنع المترو	جيجل	

وكان مركز الحزب 3 نهج مارشي ذي بطرياك، وبدأت الدعاية في أوساط العمال في نواحي باريس للتعريف بالحركة، وكانت الاحياء الاولى التي تركز فيها الحزب هي ناحية الثالثة عشرة، سان دونيس، كليشي، وجنقلي. وبعدها تركز النشاط حول الناحية الثامنة عشرة، والتاسعة عشرة، والعشرين.

في 26 ديسمبر من نفس السنة وقع اجتماع بقاعة المهندسين المدنيين تحت رئاسة حاج علي عبد القادر وتكلم فيه المحامي بيرطون وكانت أول جريدة أسسها الحزب هي جريدة الإقدام وقد عطلتها الحكومة في عددها الثالث أو الرابع لوجود صفحة بالعربية، وبعدها تأسست جريدة الإقدام الباريسي ولكنها لم تعش طويلا أيضا.

وفي شهر فبراير سنة 1927 انعقد مؤتمر بروكسل ضد الاستعمار ما بين 10 و15 منه وقد حضره ممثلان عن نجم الشمال الافريقي وهما مصالي الحاج والشاذلي خير الله. ومن الشخصيات التي تعرفا عليها في المؤتمر: نهرو وهوشيمينه وسوكارنو...

وفي آخر فبراير رجعت الى مسقط رأسي وقضيت ثلاثة أشهر بين سيدي عيش وبين عين البنيان الذي كان لي فيها بعض الاقارب. وفي مقهى هذه المدينة بدأت أتحدث عن الحركة ومهمتها واريتهم ورقة اشتراكي التي كانت تحمل صورة الامير خالد، وطلبها مني عامل المقهى وعلقها امام الزبائن.

وفي شهر نوفمبر سنة 1927 وقع اجتماع عام للحزب بنهج «قراسيوز» بباريس، وأثناء الجدال تحددت الفكرة الوطنية وقدمت لائحة تطالب باستقلال الجزائر وصودق عليها بأغلبية ساحقة، وهنا اسقط في آيدي الشيوعيين الذين كانوا يريدون أن يجعلوا من الحزب مادة استغلالية لفائدة الحزب الشيوعي الفرنسي وقد احتجوا وخرجوا من الاجتماع وخرج معهم بعض الفرنسيين الذين كانوا يعطفون على الحركة، وقد انقطع أغلب الشيوعيين عن الحركة ومنهم حاج علي عبد القادر. ثم اعلن

بواسطة منشورات عن اجتماع كبير يتكلم فيه الأمير خالد وتحت رئاسته الشرفية ولكنه رفض الحضور واجاب شابيله بهذه الكلمة «حينما كنت اشتغل بالسياسة كنتم أنتم لا تزالون رعاة» ووقع الاجتماع بغير حضوره.

وفي سنة 1929 بدأت حكومة طارديو تضغط على المناضلين، وقررت في نوفمبر حل الحزب واستدعي قاضي التحقيق المسؤولين ليبلغهم قرار الحل، ولكن محامي الحزب بيرطون نصح القادة بان لا يستجيبوا للدعوة وهكذا اصبح هذا القرار عديم المفعول لانه لم يطبق في الوقت القانوني.

وفي سنة 1930 وقع الاحتفال باحتلال الجزائر وقام المستعمرون بالتطبيل والتزمير لهذا الاحتفال، وكانت الحركة في آخر 1929 قد هيأت منشورا عن الحالة في الجزائر بهذه المناسبة واعطته لمحمد معروف الذي كان مسؤولا عن مطابع النقابة، وبدأ يسوفنا ويختلق كل مرة عذرا، والحقيقة أنّ الشيوعيين قد بدأوا في محاربتنا من طرف خفي ويعطلون اعمالنا سيما بعد حل الحركة من طرف الحكومة، وبالرغم من هذا فقد بعث مصالي الحاج مذكرة الى عصبة الامم يحتج فيها على الحالة في الجزائر وعلى احتلالها من مدة قرن.

وفي آخر هذه السنة أسست جريدة الأمة وعين صاحب امتيازها السي الجيلاني محمد السعيد، ومصالي الحاج محررها. وكان الوحيد الذي يحسن الكتابة. فالاعداد الأولى من الجريدة كانت من تحريره من أولها إلى آخرها. وفي سنة 1931 و1932 تعززت الحركة بدخول فوج جديد من العمال منهم : عيماش عمار، راجف بلقاسم، كحال ارزقي، موساوي رابح،

بورنان محمد، عاشور، محمد ربوح، معاوية عبد الكريم، صبار احسن والطيب بوساك وغيرهم...

وفي سنة 1932 اقيمت حفلة موسيقية بقاعة «لوبوتي جرنال» لجمع المال للجريدة، وبهذه المناسبة بعث قدور بن غبريط الذي كان محافظا لمسجد باريس وممثلا لملك المغرب شيكا بمبلغ 50 فرنكا اعانة للجريدة فأعيد اليه الشيك مع رسالة نشرت بجريدة الأمة تذكره بان المناضلين لا يقبلون مال العملاء.

وفي السنة نفسها كتب المحامي كيراط الذي كان يصدر جريدة عين الصفراء بمدينة مستغانم في مقال له.

«لا يوجد اي وطني في بلدته (يعني مستغانم) وإذا وجد حقا اتمنى أن أراه... انني جزائر ي في وطني، لقد ولدت هنا وابي كذلك وكان جدي ضابطا للاحتلال»، ثم نبه على الحركة الوطنية وقال ان جريدته والحكومة والشرطة تعمل كل ما في وسعها للقضاء على المشوشين وقد اجابته جريدة الأمة : «ايها السيد كيراط انك لست بجزائري لانك حفيد المحتلين».

وقد نشرت في السنة نفسها أيضا الجريدة الفرنسية لاديبيش كولونيال بمناسبة الحج ان الحكومة الفرنسية بعثت لجنة رسمية على رأسها العميل جلول بن لخضر وتكرمت عليه بلقب «خليفة» لترفع من قيمته. وقد قابل الخليفة الملك ابن سعود ومدح امامه الأعمال التي تقوم بها الحكومة الفرنسية فيما يخص المسلمين. وقد اجابه العاهل السعودي باني لا اشك في كلامك اني على علم بما تقوم به فرنسا تجاه المسلمين.

وقد اجابته جريدة الأمة بان جلول بن لخضر خليفة من ؟ وما ؟ الرمل ام الجراد ؟ وقد كان السيد قدور فار بالأغواط حينما

صدر المقال عن خليفة بن لخضر وبهذه المناسبة فتح اكتتابا لجريدة الأمة جمع فيها 265 فرنك وكان لها قيمة في ذلك الوقت.

وقد بقي الحزب من انشائه الى شهر ماي سنة 1933 من غير برنامج مسطر وقوانين داخلية محددة. ولهذا فقد عينت اللجنة المركزية يوم 28 ماي سنة 1933 وكانت تتألف من ثلاثين عضوا أهمهم : مصالي الحاج، عيماش عمار، راجف بلقاسم، سي جيلاني محمد السعيد، موساوي رابح، كحال ارزقي، بانون اكلي، معاوية عبد الكريم، صبار احسن، وربوح محمد، وعينت كذلك اللجنة التنفيذية، وكانت كالاتي:

مصالي الحاج : رئيس الحزب ومدير جريدة الأمة

عيماش عمار : كاتب الحزب ورئيس تحرير الجريدة.

راجف بلقاسم : امين المال.

وفي هذا الاجتماع تحدد البرنامج السياسي والقوانين الداخلية. ومن هذه القوانين قانون منع جميع اعضاء الحزب من ان ينتموا الى حركة أخرى او حزب الا بإذن من الإدارة. ومن هذا اليوم خرج كل الذين دخلوا الحزب لاجل استعماله والخروج به عن دائرة اهتمامه.

وبمناسبة صدور قانون شوطان الذي خول لرئيس قسم البوليس ان يحضر يوم الجمعة في المسجد ليستمع الى ما يقوله الخطيب، عقد الحزب اجتماعا في قاعة «لاسوسيطي ساقانط» يوم 15 ماي سنة 1934 للاحتجاج ضد هذا التدخل السافر في شؤون الدين واستدعى اليه عددا من الشخصيات منهم : ديكلو، مارسو بيفرو دوريو ، وجان لونقي حفيد كارل ماركس.

ولكن الحكومة منعت الاجتماع واحاطت المكان بسياج من الشرطة، وامام هذا التعسف نقل مكان الاجتماع في الوقت نفسه إلى نهج كمبرون 18، وقبل ان تطلع الحكومة كان الاجتماع قد مر بسلام، وكان هذا يوم السبت. وفي يوم الاثنين صباحا بدأت التفتيشات عند مصالي وفي مركز الحزب الذي كان بمنزلي وكان قد اخبرني مصالي هاتفيا بتفتيشه لاخذ الاحتياط. وحينما وصلوا لم يجدوا شيئا، وبالرغم من هذا فقد وجهت تهمة إعادة تنظيم جمعية محلة والعمل ضد النظام وخلق الفوضى الى مصالي وعيماش وراجف.

وقد ركز قاضي التحقيق تهمته على نشرة داخلية تقول إن الأقلية يجب ان ترضخ لرأي الاكثرية، وعلق على هذا بان الحزب فاشستي، ولكن المحامي بيرطون اجابه بان هذا هو النظام والطاعة لان الفوضويين لا يعترفون بنظام.

وفي هذه المحكمة حكم على مصالي بستة أشهر سجنا وعيماش باربعة وراجف بثلاثة أشهر وخمسة الاف فرنك غرامة للثلاثة.

وقد طلب المتهمون استئناف الحكم ولكن المحكمة ايدت الحكم السابق، ثم رفعت القضية الى محكمة النقض والابرام فقررت اعادة المحاكمة واسندتها الى محكمة اميان.

وقد وقف المتهمون امام محكمة اميان يوم 7 ماي 1934، وبعد تسجيل هويتهم توجه القاضي الى المتهمين بقوله : «إنكم متهمون باعادة انشاء جمعية محلة من طرف الحكومة، والاخلال بالامن والاعمال الفوضوية». اجاب مصالي القاضي بقوله : «انكم تحاكموننا بقوانين غاشمة». فرد عليه القاضي موجها

كلامه الى المتهمين : «لا اريد ان اسمع الحق من فم عربي» وهنا اجاب المتهمون : «اذا كانت المسألة بهذه الكيفية فاننا نرفض الإجابة عن الأسئلة».

وفي 14 ماي كان من المنتظر ان تقع المحاكمة، ولكن محامي المتهمين اجاب قاضي المحكمة : «بما انكم لا تريدون ان تسمعوا الحقيقة من فم عربي عندئذ تريدون ان تسمعوا الكذب ولهذا فلا موجب للكلام». وفي هذه الآونة دخل حارس المحكمة واقترب من القاضي وحدثه في أذنه بان الوطنيين جاؤوا للمظاهرة هنا. فالتفت رئيس المحكمة الى الجزائريين وقال : «لو تحاولون اقلاق المحكمة لأمرت باخراجكم بالقوة».

وهنا تقدم المحامي بيرطون مجيبا رئيس المحكمة بان الجزائريين الموجودين هنا لم يأتو للتشويش ولكنهم جاؤوا للتضامن مع اخوانهم المتهمين. وقد رفعت الجلسة في انتظار الحكم بعد ايام.

والى أوائل سنة 1934 كانت النشاطات السياسية، اما باسم جريدة \الأمة او باسم نجم الشمال الافريقي المحل. ولهذا رأت ادارة الحركة أن تؤسس منظمة جديدة، تخلف الأولى تحت اسم «نجم الشمال الافريقي المجيد»، وبدأ العمل باسمها، الى أن قررت المحكمة في جويلية سنة 1934 ان الحل الاول للنجم كان غير قانوني، لانه لم ينفذ في الوقت المحدد، فاعيد للأول شرعيته.

وبمناسبة حوادث قسنطينة «اوت 1934» بعث الحزب بلجنة بحث يصحبها المحامي روبير لونقي وطالب بشير وبلجنة اخرى الى شمال فرنسا لجمع الاعانات لحوادث قسنطينة.

وقد حاولت لجنة الدفاع عن المسلمين الجزائريين في فرنسا التي كانت مؤيدة من طرف الاستعمار ان تشترك مع نجم الشمال الافريقي بمناسبة حوادث قسنطينة ولكن هذه الأخيرة رفضت واصحاب اللجنة هذه هم : منصوري، بهلول وايت علي.
وفي أواخر سبتمبر سنة 1934 وقعت حوادث تونس الشقيقة وذلك بحل الحزب الحر الدستوري، واعتقال قادته، ونفيهم الى الصحاري. وبهذه المناسبة نظم الحزب يوم 14 اكتوبر بنهج كامبرون رقم 6، اجتماعا كبيرا للتضامن مع الشعب التونسي والاحتجاج ضد القمع، ولكن الشرطة تدخلت لمنع الاجتماع، ووقعت مشادات بينها وبين الوطنيين، وأثناء هذه المشادة نادى احد الحاضرين اسمه فرسي : «الفرنسيون الى البحر»! فكانت السبب في محاكمة مصالي وعيماش وراجف، الاول بستة اشهر والثاني باربعة اشهر والثالث بثلاثة اشهر. وبعد رفع الحكم الى محكمة الاستئناف تضاعف الحكم فاصبح الأول سنة والثاني 9 اشهر والثالث 6 اشهر، وقد رفع الحكم الى محكمة النقض والابرام ولكنه رفض، ولهذا قررت اللجنة المركزية ان يذهب مصالي الى سويسرا، وبقي عيماش مختبئا ولكنه ضاق فسلم نفسه، اما راجف فقد اعتقل في ايسي ليمولينو.

وبمناسبة احتلال ايطاليا للحبشة، وقع اجتماع شعبي كبير للاحتجاج. وقد شارك فيه عدد كبير من الجمعيات الديمقراطية اليسارية وتاسست لجنة باسمه لتذهب الى جمعية الأمم للدفاع عن الحبشة، وكان مصالي من اعضاء اللجنة ممثلا للمستعمرات الافريقية والاسيوية. وقد تكلم في جمعية الامم واحتج على احتلال الشمال الافريقي من طرف فرنسا، وقد نبه على ان

الاجتماع خاص بالحبشة فاجاب ان الحبشة مهددة بالاحتلال اما الشمال الافريقي فانه محتل من قرن ويزيد.

وفي شهر سبتمبر من سنة 1935 انعقد مؤتمر مسلمي اوروبا بجنيف تحت رئاسة الامير شكيب ارسلان وقد حضرته لجنتان من الحزب، واحدة من مدينة ليون وتضم الجزيري وبداك، والاخرى من باريس وتضم مصالي الحاج وعيماش عمار وبانون اكلي، واذا كان مصالي قد وصل قبل افتتاح المؤتمر، فان عيماش والمتحدث قد اوقفوا على الحدود، وقد ذهبت لجنة المؤتمر لاستقبالهما في القطار، وكانت تتكون من مصالي الحاج والامير شكيب ارسلان واحسان الجابري ورفيق الامير وعلي الغياتي مدير جريدة الشرق العربي وكم كانت دهشتهم حينما وصل القطار ولم يجدونا فيه، وهناك نبههم مصالي بانه لا شك أنهم قد منعوا من الدخول وهم باقون في الحدود، ولم نصل الا في اليوم الثاني بعدما طلب منا «كوميسار» الحدود ان يعطينا اوراقنا ودراهمنا ان نحن بدلنا وجهتنا ورجعنا الى فرنسا، فرضينا ولما خرجنا من عنده بدلنا الطريق ودخلنا الى جنيف من ناحية ثانية، وكنا مصحوبين بالاخ بلكبير الذي كان تاجرا متجولا بسويسرا، وذهبنا رأسا الى نزل الشرق الذي انعقد فيه المؤتمر، وما ان وصلنا الى درج النزل حتى كان مصالي في انتظارنا وقد كان على علم بوصولنا، ودعينا الى اخذ مقاعدنا في المكتب الشرفي. وقد دام المؤتمر من 12 الى 17 سبتمبر، وقد تكلم عيماش عن سبب تاخرنا. وقد حضر المؤتمر كذلك مبعوثين من طرف الاستعمار، واحد من باريس والثاني من الجزائر وكانت مهمتهما الدفاع عن اعمال فرنسا في الجزائر، وقد حذرهم مصالي بقوله : «لو

تحاولون الدفاع عن فرنسا، لفضحناكم امام العالم». فاجابوه بكل وقاحة : «لو تتكلمون عن فرنسا وتستنقصونها لعارضناكم». ولم يتكلموا في المؤتمر.

اما الذي كان واسطة بين الأمير شكيب ارسلان وبين نجم الشمال الافريقي فهو السيد محمود سالم باي، وذلك في سنة 1932 وقد كان يسكن باريس، 18 نهج متز، بعد ما كان قاضيا دوليا بمصر وهو صاحب مبادرة «المؤتمر الاسلامي الاوروبي» بجنيف.

وفي سنة 1935 ايضا بعث نجم الشمال الافريقي الاخ خيضر عمار لتمثيل العمال الجزائريين في مؤتمر العمل العالمي بجنيف.

وقد كانت مظاهرات 14 جويلية سنة 1935 من الباستيل الى لاناسيون، خلف العلم الجزائري وتحت شعار «نجم الشمال الافريقي تضم اربعين الفا». اما مظاهرات 14 جويلية سنة 1936 في عهد «الجبهة الشعبية» كانت تضم ثمانين الفا.

وعند تاسيس حكومة «الجبهة الشعبية» التي انبثقت عن التجمع الشعبي الذي كان نجم الشمال الافريقي احد اعضائه، تاسست لجنة من الحزب تضم : مصالي الحاج، وعيماش عمار، سي الجيلاني، وبانون اكلي. وذهبت الى وزارة الداخلية وقد استقبلت من طرف كاتب الدولة للداخلية السيد راوول اوبو وقدمت له قائمة المطالب المستعجلة الخاصة بالحريات الديمقراطية، وقد وعد كاتب الدولة بتسليمها الى الوزير «روجي سالنقرو».

وقد سلمت اللجنة تصريحا لجريدة الطان حول مقابلة كاتب الدولة للداخلية. وعندما وصلت لجنة المؤتمر الاسلامي الجزائري الى

باريس لتقدم مطالب الجزائر، بعث نجم الشمال الافريقي لجنة لمقابلتهم، تتالف من : مصالي الحاج، عيماش عمار، بانون اكلي وسي الجيلاني. وبدأت المحادثة بشان مطالب اجتماعية تهم الجماهير الجزائرية، واتفق الطرفان على مواصلة الحديث غدا صباحا. ولكن في الصباح ذهبت اللجنة الى وزير الداخلية وقدمت له المطالب، المحتوية على الحاق الجزائر بفرنسا، وعند رجوعهم من وزارة الداخلية استدعتهم لجنة نجم الشمال الافريقي الى الاجتماع في نهج «سان بوف» الناحية السادسة. ولكن لم يلب الدعوة منهم الا السيد فرحات عباس والشيخ ابن باديس وطاهرات.

وبدأت المناقشة حول الحاق الجزائر بفرنسا، فاجاب عباس وطاهرات بانها الطريقة الوحيدة للتمتع بحقوق الفرنسيين، وانها احسن سياسة. الا ان الشيخ ابن باديس حينما استمع للتحليلات التي قدمها اصحاب الحزب وافقهم عليها، وبدأ يعارض اصحابه، وهذه كانت من جملة الاسباب التي فرقت بينه وبين الشيخ العقبي فيما بعد.

وفي أوائل شهر اوت وصل مصالي الى أرض الوطن والقى خطابه التاريخي في الملعب البلدي. وقد استقبل من طرف فرع العاصمة لنجم الشمال الافريقي الذي تاسس عام 1933 بكيفية طريفة وذلك ان ابن اخي اشترى كتابا عربيا وعنوان المكتبة هو 15 نهج راندون فبعثت عددا من جريدة الامة في وسط جريدة فرنسية، وبعد ما قرأوه طلبوا منا عشرة اعداد ثم عشرين ثم مائة. وفي الاخير بعثوا لنا بعنوان كشك للجرائد بساحة الحكومة يدعى «بودوغليو» وقيمة الجريدة كانت 10 صولدي للجريدة والباقي للبائع. اما الاعداد الاولى فكانت بلا شيء.

وتاسس أول فرع للنجم في «بوفاريك» من طرف الاخ جبار اكلي (وكان الفرع يضم الاغلبية من العاصمة واول مناضل اتصل بالادارة في باريس كان الاخ مسطول عام 1934.

وقد قام مصالي بعدة اجتماعات واسس عدة فروع وقد كانت جولته عبر القطر الجزائري اكبر فائدة للحركة.

وفي آخر سنة 1936 رجع مصالي إلى فرنسا ونظم اجتماعا عاما للمناضلين. وفي هذا الاجتماع قدم راجف اقتراحا مفاده : ان اللجنة المركزية لا يمكن أن يكون عضوا فيها الا من كان يعرف القراءة والكتابة. وقد صودق على الاقتراح. وعلى اثره خرج ابن مسعود عبد القادر والمتحدث. وفي 26 جانفي حلت حكومة الجبهة الشعبية حركة النجم الشمال الافريقي بمواطأة الحزب الشيوعي الذي كان يحقد على الحركة لانها رفضت أن يذهب الجزائريون إلى الحرب الاهلية الاسبانية من غير أن تتعهد الجمهورية الاسبانية باستقلال الريف، ثم أن نجم الشمال الإفريقي كان غريم الحزب الشيوعي من ناحية العمال وكان هذا الأخير يود أن يتخلص من غريم خطير.

وما ان سمع العمال بحل الحركة حتى بدأوا بتمزيق أوراق انخراطهم في الحزب الشيوعي والنقابة وخروجهم منها.

ومن ناحية أخرى فإن الذين انتخبوا في اللجنة المركزية الجديدة قد ابتعدوا عن الحركة لانهم لم يكونوا مستعدين للكفاح.

وبالرغم من حل الحركة من طرف الجبهة الشعبية، فانها بقيت دائما بجانب اليسار الفرنسي.

وقد بعث الحزب الشيوعي إلى الجزائر بارطيل ودلوش، الأول كأمين عام للحزب، والثاني كاختصاصي في المسائل الأهلية اقتداء بالإدارة الاستعمارية.

وهكذا تأسس حزب الشعب الجزائري بنانطر في اجتماع عام تحت رئاسة مصالي الحاج العملية، والشرفية للسيد أحمد مسياح، وفي نفس السنة رجع مصالي إلى الجزائر وقد اعتقل بعد بضعة أسابيع مع جماعة من اللجنة المركزية وذلك في شهر أوت، وقد حكم عليه وعلى من معه بسنتين سجنا.

وما أن خرج من السجن في سنة 1939 حتى اعتقل من جديد وحكم عليه في 21 مارس 1941 بستة عشر عاما سجنا مع الاشغال الشاقة هو والجماعة الذين كانوا معه، ونقلوا جميعا إلى سجن «لامبيز» حيث تجرعوا الجوع والضغط والإرهاق، وبعد ستة أشهر من نزول الحلفاء بالجزائر خرجوا من السجن وأرغم مصالي على الإقامة الإجبارية في شلالة وبعدها عين صالح وأخيرا «برازافيل».

إن اشتداد الضغط الذي تواصل من سنة 1937 إلى سنة 1939 على حزب الشعب جعل بعض مسؤولي الحزب بفرنسا يفكرون في ايجاد غطاء لنشاطهم يقيهم ضربات الاستعمار المتوالية. فقد كانت السجون مملوءة بالإطارات التي كانت موجودة آنذاك. وهكذا فكروا في اتخاذ لجنة للدفاع عن الجزائريين بفرنسا التي بقيت صورة فقط لا تقوم بأي عمل والتي أسست سنة 1932 لمناوأة الحركة الوطنية بفرنسا. وقد وقفت اللجنة المركزية ضد هذا التفكير واستدعت اجتماعا عاما بنهج سان شارل 112 الناحية الخامسة عشرة. ووقعت

مناقشة حادة وفي الأخير قرر الاجتماع البقاء على الحزب وعدم الانخراط في أي منظمة.

وأصحاب هذه الفكرة هم : راجف، سعيد وعمر، ايت منقلات، وخيدر عمار، وقد استقالوا من المكتب السياسي وبقوا في اللجنة المركزية إلا ايت منقلات فقد خرج من الحزب، ثم تأسس مكتب جديد يضم: بانون اكلي، شعبان علي، اكشيش محمد، سعيد وعمر، العروبي محمد العربي. وقد اشتد الضغط فاعتقل السي الجيلالي صاحب امتياز جريدة \الأمة ونقل إلى بربروس وبعدما قضى ستة أشهر في السجن حكم عليه بشهر واحد. فأخذ مكانه في الجريدة شعبان علي وبعد شهرين أو ثلاث اعتقل كذلك. فخلفه العروبي محمد العربي.

في شهر ماي سنة 1939 وجهت تهمة إعادة منظمة محلة إلى أعضاء اللجنة المركزية بصفة جماعية. وفي سنة 1941 استدعى قاضي التحقيق لمحكمة «لاسين» جميع الأعضاء المتهمين بإعادة منظمة محلة ثم تأخر التحقيق إلى أجل غير مسمى، وفي هذه الفترة كان الأخ خيدر عمار قد انخرط في الجبهة الاجتماعية للعمل التي كانت تعمل لألمانيا وتوصل إلى الحصول على الوثائق الخاصة بالحزب الموجودة بالولاية ومزقها وهكذا لم يبق للتهمة أي وثيقة. في 9 جانفي من سنة 1940 اعتقلت وأخذوني إلى سجن فرنسي يوم 11 مارس، وفي 17 ماي ذهبوا بي إلى بواسي، في 11 جوان إلى انجر وفي 16 جوان إلى جزيرة دوري، وردوني من جزيرة دوري إلى بواسي أول سبتمبر، وسرحت يوم 25 نوفمبر من نفس السنة. ثم اعتقلت مرة أخرى في 23 سبتمبر سنة 1942 وبقيت 75 يوما في السجن ولكن المحكمة وجدت التهمة غير قانونية فاطلق

سراحي ولكن بمرسوم إداري وجهوني إلى معتقل في فرنسا ثم نقلوني إلى المانيا في 9 ماي سنة 1944 في معتقل كذلك وبقيت إلى 16 جوان سنة 1945 حيث أطلق سراحي.



مسيرة للجزائريين بباريس، من اليسار إلى اليمين : اكلي بانون، راجف بلقاسم، لعول حسين، مولاي مرباح، وبن قطاط

20

جمال الدين سفينجة

في سنة 1971، رأت المكتبة الوطنية أن تقوم بمهمة تسجيل حياة بعض المناضلين في المنظمات المختلفة، الذين عاشوا أحداثا، وشاركوا في صنعها، وعرفوا أشياء ما زالت مجهولة بالنسبة إلى المؤرخ الذي لا يجد أمامه إلا الوثائق الاستعمارية. وقد انتدبت من التعليم للقيام بهذه المهمة التي كنت مقتنعا بجدواها وأهميتها وكانت هذه هي التجربة الأولى فيما يخص التاريخ من أفواه الرجال. لقد صدر كتيب للمكتبة الوطنية تحت عنوان التاريخ بواسطة التسجيلات ضم عينة لثلاث شخصيات من ضمنهم جمال الدين سفينجة الذي أحاول أن أقدم بعضا من تسجيلاته التي بقيت في أوراقي. بعدما ضاع الأصل بين مكاتب النشر. وجمال الدين سفينجة شخصية مرموقة بالنسبة إلى العاصمة. عرك أحداثها وشارك في عدة منظمات وكان نائبا في البلدية، وعضوا في نادي الترقي وفي جمعية العلماء وإني إذا أقدم هذه المعلومات المختصرة، أتمنى أن أعود مرة أخرى لإتمام ما بقي في الأشرطة.

1901 جمال الدين سفينجة يتحدث عن نفسه

ولدت في 1 جويلية 1901 بالعاصمة. عائلتنا قديمة. يقال إننا جئنا مع الإخوة عروج وخير الدين وكان أفراد عائلتنا يتقلبون بين

اداليا بتركيا وبين الجزائر. واستقر جد أبي بالعاصمة، ثم نفي مع كل من كان يعمل في الوجاق التركي.

أبي حمدان وجدي محمود وأخوه علي. سافر أبي إلى الاستانة مع ثلاثة من رفاقه، منهم محمد قصد علي والسي حمدان المؤذن سنة 1893 ولم يكن السفر سهلا، فقد كانوا يعرفون «مالطيا». كان يذهب إلى فرنسا للمتاجرة بالبقر فأخذهم معه، وحينما وصلوا إلى مرسيليا قال لهم يمكنكم أن تدبروا أموركم، وتعتمدوا على أنفسكم، وهكذا ذهبوا مع باخرة إلى اليونان ثم إلى تركيا.

وفي مسجد الاستانة في يوم الجمعة، رأى والدي رجلا مهيبا يتطلع إليه المصلون حين يدخل وكان هذا الرجل هو جمال الدين الأفغاني. وفي ذلك الوقت نذر والدي أن يسمي أول أبنائه جمال الدين ولم يكن قد تزوج بعد، وقد وفي بنذره، وكنت سمية ذلك الرجل العظيم.

وفي الخامسة من عمري دخلت إلى كتاب سيدي محمد الشريف لأقرأ القرآن على شيخ الحاج موسى البليدي المعروف ببوحنجرة ووصلت إلى سورة سبح. كان الكتاب يضم ما يقرب من ستين طفلا، فيه ما يقرب من نصفه البنات وفيه بعض التلاميذ الكبار يعينون الشيخ ويخلفونه ويقومون بالفلقة اللعينة، ويسمون «القالفة» بمعنى الخليفة، وأثناء الختمات نذهب بلوحتنا إلى الزواق وليد دادة الذي كان مشهورا.

وبعد عامين رحلنا إلى حومة «لابومب» بدار وليد لاغة، وهنا أخذني جدي إلى مدرسة فرنسية من القطار الذي كان وكيلا فيه. ومدير هذه المدرسة هو السيد ابراهيم فاتح. كان المدير عظيم الجثة أسود اللون يتكلم الفرنسية كما يقولون كأنها «اللتان» وكان

له أخ إسمه السي بن يوسف، كانت حرفته بلاغجي وكان أقل منه سوادا. ويقول والدي أن أباهم كان طباخ الجنرال «يوسف» وكان معي في هذه المدرسة جماعة من الشبان منهم محمد راسم.

وبعد عامين رحلنا مرة أخرى ودفع بي والدي إلى مدرسة «ساروي» نهج مونبانسي وكان لنا بين الثانية عشرة والواحدة معلما للعربية اسمه عمر القندوز وقد أصبح بعد أول مذيع راديو الجزائر. وبعد سنة، يعني سنة 1910، هربت من المدرسة لأنهم أرادوا أن يجعلوا لنا الدواء في رؤوسنا كأننا كلنا مرضى.

ثم بعد سنة أخرى رجعنا إلى السكن مع عائلة علي راسم أمام زاوية سيدي محمد الشريف بـ «بازار الريش» نهج النخلة. وعلى ذكر جدي الذي كان وكيل مقبرة القطار، وكان يحكي عن الشرفة التي كانت موجودة في المقبرة وكانوا يصلون فيها على الموتى، ويقولون إنها كانت تضم أجساد الحراس لبرج مولاي حسن، الذين اشعلوا النار في البرج وماتوا وسطه، وذلك بأمر من السيد مصطفى خزناجي بيت المال، فكانوا الشهداء الأوائل ضحايا الاستعمار، وكانوا يسمونهم «الريغيين». وبعد وفاة جدي هدم الاستعمار الشرفة وكانت القطار خارج المدينة ويمرون إليها بقنطرة والسور الموجود الآن أقيم وقت أن كان الأمير خالد في البلدية بعد الحرب العالمية الأولى.

والغريب أن مقبرة القطار بالقرب من سجن بربروس، وعلى مقربة منها المزبلة الكبرى لمدينة الجزائر ومستشفى الأمراض المعدية، والبازيطا «محل عيادة العاهرات».

أما الحالة الاقتصادية في أول هذا القرن فقد كانت سيئة للغاية لأن البضائع التقليدية كحرفة الشاشية والقرن قد قضت عليها المصنوعات التي بدأت تأتي من فرنسا.

في أوائل هذا القرن زار الجزائر الوزير المغربي القباس وتزوج بجزائرية وأخذ معه بن غبريط الذي أصبح فيما بعد ممثلا لملك المغرب بفرنسا. وجاء أيضا إلى الجزائر شريف وزان في قضية أولاد سيدي الشيخ، ويقال إن واحدا من عائلة البريهمات قد أخبر أولاد سيدي الشيخ بما يدبر لهم ولكنهم لم يسمعوا له.

أحياء العاصمة

كانت الجزائر مقسمة إلى أحياء، وكل حي فيه دروب وزنق كانت ملمومة يجمعها سور. وعندما دخل الفرنسيس فتحوا فيها أربع طرق نهج «لالير» نهج «مارنقو» ونهج «بودطناف»، نهج «القصبة». والقصبة تدل على البرج لدار السلطان التي بناها خير الدين، وأصلحها السيد علي خوجة والداي حسين، ونهج النصر التي كانت تسمى باب الجديد ملاصقة لبرج القصبة، ولها جناحان جناح اليمين، وجناح اليسار وعلى كل جناح سور، ولا زالت هذه الأسوار إلى الآن وتسمى بالخربة.

وأشهر أحياء العاصمة حي باب الجديد، عين الهجاجل، درب القصبة، فرن الجمال، بير جناح، جامع السفير، جامع الفريتونة، بير شبانة، سيدي محمد الشريف، بازار الريش، سيدي صاحب الطريق، سباط القطط، سباط الذهب، زنقة الشعابنة، سيدي بن علي، عين المزوقة، سيدي رمضان، عين الصباط، علي بومدفع، زنقة بن فارس، جامع بودقيسة، حمام بهيمات، زنقة الفرينة وزنقة بين السور والسطارة، سيدي شعايب، زنقة قايد الوصفان، خزن بوشاقور، الخطيب، جنانة الباشوات، قهوة الكبيرة، زاوية أيوب، باب الجزيرة، باب البحر، باب المرسى، باب الجنايز، باب الجديد، باب القطار، باب الواد، باب عزون، صباط الأحمر،

سوق برج مولاي محمد، برج الفنار، الطرزانة، رحبة الفحم، القيسارية، باب البستان، دار بنت السلطان.

كان في مدينة الجزائر 9 آلاف منزل مفصلة كما يأتي : 3 آلاف وجاق، 3 آلاف حبوس، و3 آلاف للملاكين.

دار الغزو كان فيها الطلبة يعيشون من جمعية سبيل الخيرات، وفيها تأسست «لاديبيش الأول» الباديستان الجنينة أول نوفمبر محطة لبيع كل ما يؤتى به من البحر.

أنشأ الشيخ مصطفى حفيظي أول مدرسة عصرية خلال الحرب العالمية الأولى، وكان يعينه السيد ابراهيم دحمون الذي كان عاملا بمكتبة الجامعة وطبع كتابا سماه سلم القراءة.

ابن عمي محمد سفينجة

محمد سفينجة ابن عم أبي، كان طالبا وحرفته بلاغجي «صانع تازقاح» كما يقولون، والمثل يقول «الطالب إذا جاح، يولي آلي والا مداح». والحرف الموجودة في ذلك الوقت هي حرف : البلغة، الصباط، الحرير، المجبود، (الطرز بخيوط الذهب)، القزدار والمقاييس. وككل الحرفيين فقد كانوا يدندنون أثناء عملهم ويغنون ويمدحون.

كان لمحمد سفينجة صوت حسن، ودكانه كان بأعالي نهج سيدي ميدي، وكان الصمت يخيم على الأحياء القديمة، فيخرج محمد سفينجة بموال مثلا يغني القطعة الأولى منه ثم يأخذ عليه جاره البيت الثاني وهكذا دواليك وتغني النوبة كلها بالتناوب إلى أن تصل إلى باب عزون، وكان جميع الحرفيين يتذوقون الموسيقى ويشاركون فيها.

والفنان الذي تعلم عنه محمد سفينجة هو السي المنمش الذي كان أخذ عن السي عميمرات الذي كان عاجزا يأتون به في قفة، وبن فراشر اليهودي. سئل الشيخ منمش عن تلميذه سفينجة هل أخذ نصيبا وافرا من الغناء فقبض بيده حفنة من الحمص أخذها من زنبيل كبير وقال لم يعرف إلا حفنة صغيرة من الزنبيل.

وفي إحدى الأيام كان جدي مدعوا إلى حفلة عرس ولم يكن يعلم أن ابنه هو الذي يغني في الحفلة، وما ان رآه حتى ذهب إليه وكسر الكويترة على رأسه وحينما سمع جدي بموت ولده المغني فرح لأنه كان يعتقد أن الموسيقى إهانة لعائلته.

كان يرافق محمد سفينجة في الفرقة الشيخ عبد الرحمان السعيدي، وكنيته الريفي، وهو الذي أتى بالقاصائد المغربية وكان طالما مثله «وموزينو» المشهور وكان يغني في قهوة «مالاكوف» وكانت المعلمة «يامنة» في صغرها تأتي إلى دار بالقرب من المقهى لتستمع إليه وتأخذ عنه، وكانت قبلها المعلمة الخالدية، وبنت عمارة وكانوا كلهم يقيمون الحضرة، ويغنون في الحفلات وكان محمد سفينجة يلعب بمقهى حيدرة التي كانت مصيفا لأصحاب الجزائر ومقهى الحامة، توفي محمد سفينجة يوم 14 جوان 1908، ومدفون بمقبرة سيدي امحمد.

وعلى ذكر الغناء كانت في المساجد جماعة تسمى بالقصادين وعددهم يفوق المائة يرتلون القصائد المديحية أو ما يشبهها وأغلبهم من الحزابين، وكانوا يسيرون فيها على النوبات الغنائية فإذا بدأوا نوبة ساروا فيها إلى الأخير، ولا زالت هذه العادة إلى الآن في سيدي عبد الرحمان، وكان لهم وقف خاص، وأشهر هذه

الأوقاف وقف «القنعي» الذي كان خاصا بالعاصمة والبليدة، وكان القنعي هذا قد عمل مع فرنسا وحصل على ثروة واسعة ولم يكن متزوجا ولا له عائلة فأوقف ماله عل القصادين وعلى المساكين في البلدين، وأغلب المغنيين أصلهم قصادين.

الحرب العالمية الأولى

كان والدي بقالا في حومة «كوشة علي» وكنت غالبا ما افتح الدكان صباحا، وكان يقابلنا دكان صغير لجارنا عمي احمد الشيخ. احييه دائما لأنه يفتح قبلنا، كان يخيط الملبوسات الشعبية ويبيعها. وفي أحد الأيام نادني ثم ناولني جريدة الصباح وطلب مني أن أقرأ له ما في الجريدة فقرأتها وفيها بأن الحرب قد اشتعلت بين فرنسا والمانيا وأن المعركة حامية بين الطرفين وأن وأن... كنت أقرأ له كأنها أخبار عادية، فما راعني إلا خروجه من الدكان واتجاهه إلى السماء وقد صرخ بأعلى صوته : «الحمد الله ثلاث مرات لقد عشت إلى هذه الساعة وحضرت إلى إعلان الحرب على فرنسا هذه أغلى أمنية كنت أترجاها». فاستغربت هذا الفرح وسألته عن أسبابه. فتنفس قليلا وقال لي : «يا بني كنت من المجاهدين المسبلين لعام 1870، وبعد الثورة نفيت إلى جزيرة كورسيكا قضيت فيها أربع سنوات ثم آتوا بنا إلى العاصمة وقالوا لنا إن بلاد القبائل ممنوعة عليكم، وأعطونا جنينة في عين الأزرق، ثم جاء آخر من عائلتنا فاعطوا له قطعة أرض في تيقسرين ولا زال إلى الآن واسمه الشيخ علي.

وابني كان طالب قرآن واسمه السي محمد وصالح». قلت له بأني اعرفه. انه إمام بجامع سيدي رمضان فأجاب هو ذاك.

وهنا تذكرت مسألة عمر راسم وتلك الوشوشات التي كان أبي مع أصحابه حينما يلتقون يتكلمون برموز لا يفهمها أحد، وكانوا يقولون إنهم يتكلمون باللاتينية، وكانت الحكومة تبعث عيونها إلى المساجد والمقاهي لترى فيما يتحدثون، وما ان يقترب أحد لسماع ما يقال حتى يبدأون بالحديث في أمور تافهة لا علاقة لها بالسياسة، فمثلا يتكلم الأول عن الفول وأين يوجد والآخر يجيبه بأنه يشتري منه عند خروجه من المسجد وهكذا وتذهب دائما التقريرات عن المأكولات وما يتبعها.

في سيدي عبد الرحمان بعد قراءة الحزب في يوم الخميس كما هي العادة، وحينما يرفع الناس أكفهم للدعاء طلب شيخ من الحاضرين يسمى بن بنينه أن يطلبوا الله لخذلان هذا المحلاس الذي سلط علينا ويعني به فرنسا وقد القي عليه القبض وعذب.

وكان الأطفال يغنون أغاني مختلفة يمجدون فيها الالمان ويسخرون من الفرنسيين ومنها : «ياللمان يالدراس نحاس، ادي علينا هذا المحلاس : الي يحكم حكمة يهودية»، وكان «لوسيان» يقيم محاضرات كل يوم اربعاء للعمل البسيكولوجي في قاعة من ثانوية بيجو والحضور واجب على الموظفين والتجار، ويقدمون لهم بعض الأفلام، ومرة قدموا لهم فيلما عن دخول الفرنسيس إلى الحجاز فأخذ والدي يضحك، وعندما سأله كحول ولوسياني عن سبب ضحكه قال إن زوجته طلبت منه أن يشتري لها القهوة ولم يتذكر الا الآن لأن الدكاكين كلها مغلقة، فقالا له لا تعد مرة أخرى إلى هذه الأساليب.

وقد قل الماء في العاصمة أثناء الحرب لقلة الطاقة لأن الفحم كان عزيزا وكان الأطفال والشيوخ والنساء يقضون طول الليل

ليحصلوا على آنية ماء، وقد قررت الحكومة «الموراتوريوم» وهو تأجيل دفع الديون المستحقة، وربما أن التعبئة كانت عامة، فالغرامة والديون تسقط إلى آخر الحرب.

ان التعبئة العامة في أول الحرب قلبت الحالة الاجتماعية والاقتصادية رأسا على عقب، فبعد أن قفلت جميع الدكاكين للتجارة والحرف التي كانت بأيدي الأجانب، بدأ الجزائريون يحصلون عليها إما بالكراء أو بالشراء أو بلا شيء.

وهكذا فالخبازون الذين كانوا إسبانا ومالطيين ويهودا بدأوا يكرون دكاكينهم إلى المسلمين ولم يكن منهم قبل الحرب إلا جزائريين خبازين، الأول مقران بوشوش والثاني باعزيز، وأصحاب الدقيق كانوا كلهم مالطيين إلا اثنين منهم وهما : السيد عبد الكريم والسيد بوجمعة. أما أصحاب الحفافة العصرية قد كانوا اسبانيين وأول جزائري هو السيد كشكول، وأخذ الميزابيون دكاكين الجزارة والبقالة، كما دخل المسلمون إلى شركات النقل الخاصة بالعاصمة كسفراوتيا وغيرها وشركات التموين التي دخلت فيها مع ثلاثة آخرين سنة 1915 وكان الصرف الصغير قليلا حتى اضطر التجار فيما بينهم أن يطبعوا أوراقا صغيرة بقيمة الخمسة والعشرة سنتيم ليعوضوا بها الصرف المفقود، وقامت البلدية والغرفة التجارية بنفس العمل.

لحدة الأزمة الاقتصادية التي كانت تسود انذاك، ولا سيما في الريف، كانت القوافل تدخل المدينة بعنف، وتطلب الذهاب إلى الحرب. ولم يفت الشيوخ والكهول الجزائريين التعليق على أحداث الحرب. وكان أبي يبعثني عند السيد جلول بوشيخ لأخذ الجرائد التي تصل من تونس إلى قسنطينة ومنها إلى العاصمة.

وكان الشيوخ المشتغلين بالالمان والاتراك وحينما يتقابلون يوشوشون فيما بينهم، ولا يفهمهم إلا الذي هو معهم. وكانوا يجلسون في مقاهي خاصة منها مقهى المرسى التي أصبحت فيما بعد قهوة التلمساني. وصاحبها قوار الذي كان يعمل مع قلاتي صاحبها ثم استقل عنه. وبجانب هذه المقهى يوجد دكان الشيخ بابا علي التركي الذي كان «حلاطش» صانع المجبود، وكانوا يجتمعون عنده في أوقات معينة، ويسمونهم أصحاب القهوة المرة. وكان المفتي والإمام والحزاب والتجار من جملة هذه الجماعة، وكل واحد يأتي بخبر ثم يخرجون بتعاليق جديدة يحدثون بها الناس. وحلفوا مرة أن لا يحلقوا لحاهم إلا بعد أن يدخل الترك الجزائر، وكان والدي من بينهم ومات ولم يحلق لحيته، وقد تأثر من بقي منهم بهذه الصدمة التي هزتهم هزا عنيفا وجعلتهم يعيشون منعزلين عن غيرهم.

الـفـهـرس

الكتاب الأول

الكتاب الثاني

الأكاديمية الجزائرية للوثائق و المصادر التاريخية.

أنجز هذا الكتاب من طرف
دار القصبة للنشر
حي سعيد حمدين - حيدرة - 16012، الجزائر
الهاتف : 10 79 54 / 11 79 54 021   الفاكس : 77 72 54 021
موقع الإنترنت : www.casbaheditions.net
البريد الإلكتروني : casbah@casbaheditions.net
الجزائر، 2005

مع مصالي الحاج :

«أثناء أحاديثي مع مصالي، رغم قصر المدة التي قضيناها معا ببربروس تطرقنا كثيرا إلى حالة الحزب وتخوف الشعب من أفكارنا ومواقفنا وقد قال لي : «يجب أن نبدأ بنقد ذاتي لسلوكاتنا تجاه الشعب الجزائري وأن نحاول تفهمه وإقناعه، ولا يمكن أن نفرض عليه إرادتنا وأسلوبنا في العمل، فالشعب الجزائري يتأثر بالأشياء الدينية ولم يستسغ بعد الفكر العمالي والكفاح اليومي».

مع مفدي زكريا :

«أثناء حديثنا الطويل تنهد وقال : «إني أحس بشوق كبير لأبنائي، وأتمنى رؤيتهم الآن وضمهم إلي، وهذا الاحساس لم أعرفه من قبل، وإني أتساءل لماذا أمنع من دخول بلادي ؟ وأنا الذي غنيتها وعبدتها وضحيت بحياتي عدة مرات، وأني أعيش هنا مختفيا لأنني مطارد من وطني».

دار القصبة للنشر

تدمك : 8-513-64-9961